حسين مهنّا

وطني.. ردّني إلى ربّك شهيدًا

مجموعة قصص

فهد رياض ناصر

حسين مهنّا
وطني.. ردّني إلى ربّك شهيدًا
مجموعة قصص

وطني ردني الى ربان شهيداً

عكا

الطبعة الاولـــى ١٩٨١

حسين مهنّا

وطني ردني الى ربان شهيداً

قصص

منشورات الاسوار - عكا

وطني ردني الى رباك شهيدا

* ☆ *

عندما رشّه الجند بوابل من الرّصاص ، وبالرغم عن إصابته في عدة مواضع من جسمه الفارع القوى ... لم يسقط على الارض ، وظل يتحامل على نفسه حتى وصل البيارة القريبة من مكان العملية .. وهناك جلس في الظلمة يلقط أنفاسه ومتحسسا جراحه التى ينزف منها الدم ..

حين غادر المخيم قالت له أمه : ان متّ فلتمت ميتة الرجال ، وان عدت فلتعد كما يعود الرجال ! ..

ضغط على جرح في بطنه وابتسم .

يوم ولدته أمه ، هكذا قيل له ، زغردت وقالت:

إني أنذره لزيتون بلاده .. ربي أسعدني به شهيدا ..

نهض من مكانه .. البقاء هنا خطر .. أخذ يسير في البيارة ملتحفا ظل الاشجار وظلمة الليل .. ولكن أين سيختبىء والجنود يملأون المنطقة واضواؤهم الكاشفة تلاحقه ؟ ؟ انها النهاية ! ! قال في نفسه . .

فليكن ما يكون .. لست أول المستشهدين ولن أكون آخرهم .. إني لا اذكر أن خرج شاب من مخيمنا وعاد اليه ثانية !! والدنيا ما زالت بخير .. المخيم ما زال يعج بالاطفال .. عشرات الاطفال يولدون .. إنهم يكبرون رغم الجوع والبرد والمرض،انهم اطفال بلا طفولة .. انهم يولدون رجالا ..

يا الله !! كم الساعة الان ؟؟ لعلها الثانية او الثالثة بعد منتصف الليل ، نسيم ما قبل الفجر ، فجر بلادنا الساحر يدل على ذلك ..

وسقط على الارض .. هذه الارض المقدّسة التي طالما تمنى أن يقبل ثراها المجبول بعرق الآباء والاجداد ، يا لهذه الرائحة ما أجملها .. لشد ما يألفها .. إنها الرائحة التي ملأت كيانه منذ الصغر .. كان يشمها في قميص والده وملاءة أمه .. فلتهنئي يا عظام والدي حيث أنت ، ولتهنئي يا روحه الطاهرة

المحلقة فـوق ربى الوطن .. ها أنذا احقـق حلمـك .. سأموت على ثرى بلادى .. وها هو ذا دمي يروى ظمأ مزمنًا في احشائها .. سقط على الارض .. ولكنه تابع المسيرة .. لن أستسلم ابدا .. قال باصرار عنيد لن أستسلم لأيد آثمة فرضت علينا هذا الواقع المؤلم .. واقع الغربة والتشريد في بلاد الاخرين عرضة للموت غيظا وقهرًا وانتظارًا امام وكالات الغوث .. يوم قلنا لهم : لكم أن يعيشوا ، ولنا أن يعيش ايضا . رجمونا بالحديد والنار .. ويوم رددنا على طائراتهم ببنادقنا .. صرخوا في وجه العالم .. قتلة .. إرهابيـــون !

ويزفر من أعماق أعماقه :

يوم غادر المخيم في مهمته هذه هـو ورفاقـه ودّعهم المسؤول بحرارة وقال : رحم الله سيدنا (أبو بكر)

الجميع يفهم ما يقصده المسؤول بالترحم عـلى أبي بكر ، فمن لا يذكر وصيته لجند الاسلام عشـية خروجهم للجهـاد !!

« لا تخونوا ، ولا تغلوا ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلاً صغيرًا ولا شيخًا كبيرًا ولا امرأةً ، ولا تقطعوا شجرةً مثمرةً ، ولا تذبحوا شاةً ولا بقـرةً ولا بعيرًا الا لمأكلة » .

ويبتسم .. رغم ما هو فيه يبتسم .. يبتسم ابتسامة القوى .. انهم يحاولون القضاء علينـــا .. يقتلون ، ويقتلون ونحن في ازدياد .. يحاولون مسحنا ولكنا نتضاعف .. اننا نتضاعف بالرغم مـن غـارات طائراتهم هذه الطائرات التي اصبحت لعبة مسلية لاطفالنا.

ويتذكر قصة عز الدين ، صديق الطفولـة .. ومن لم يسمع بقصة ((عز الدين)) فقد صادفت احدى الغارات الجوية يوم (دخلة) عز الدين ، واختبأ الناس في الخنادق .. الطائرات تقصف .. والارض أعمـدة هائلة من نار ودخان .. وعز الدين في (البراكية) مع عروسه .. وأخذ الناس ينادونه وهو لا يأبه بهم حتى خرج اخيرا هو وعروسه واختبأ مع المختبئين .. وكان لا يزال يشد حزامه على وسطه .. وعندما عـاتبوه لتباطئه في الخروج صاح فيهم : مهما يكن من أمر .. كيف تريدونني ان اخرج قبل ان أزرع في احشاء هذه طفلا ؟! وأشار الى عروسه التي احمر وجهها خجلا !!

وتنهد مرة ثانية .. لعله أخطأ يوم طلبت امـه منه أن يتزوج ، في هذه اللحظة بالذات افهم ما قصده عز الدين !! ولعل الزواج في مثل هذه الظروف واجب وطني يجب ان نؤديه باخلاص وامانة ..

كان لا يزال يزحف ببطء .. كان يزحف ببطء يدل على عجزه .. هذه الجراح اللعينة لا تتوقف عن النزف .. إنه متعب .. متعب جدا .. ساعات ، وربما دقائق ، ويفارق الحياة .. أجل سيفارق الحياة! واحس بقشعريرة باردة سرت في كيانه كله.. قشعريرة ليس سببها الخوف إطلاقاً !! لشد ما يخاف ان يمضي دون أن يكون قد أدى مهمته كما يجب .. أحقا لم يعد بالامكان عمل أى شيء ؟؟ احقا قد انتهى كل شيء ؟؟ فعلى ضوء المصباح سيجدون جثته راقدة على الارض وسأل نفسه ، ترى ؟ ما قد يفعلون بجثتي ؟ وابتسم لهذا الخاطر الغريب .. اجل ابتسم .

رحم الله أسماء بنت أبي بكر يوم قالت لولدها عبدالله بن الزبير ((أى بني مت كريما واياك ان تؤسر فقال يا أماه ، اني أخاف ان يمثل بي بعد القتل ، فقالت : يا بني وهل تتألم الشاة من ألم السلخ بعد الذبح !!)) .

توقف عن الزحف واسترخى على ظهره لاهثاً ، وعاد يسأل نفسه أحقاً هذه هي النهاية ؟ ألم يعد بالامكان عمل شيء اى شيء ؟! ألا يعيد التاريخ لنفسه لقد بر الشنفرى بقسمه وقتل الرجل المئة بعد موته..

أجل قتله بعد موته .. وفجأة اخذ عقله يعمل بسرعة، هذا العقل العسكرى المدرب على التخطيط والتنفيذ ، وبسرعة امتدت يده الى القنبلة اليدوية التي بقيت معه .. كان يعلم انه في سباق مع الموت .. ولذا عليه ان يعمل بسرعة رغم ما حل به من خوار .. لن يموت بهذه البساطة .. حتى بعد الموت عليه ان يفعل شيئا .. عليه أن يستمر في المقاومة .. يـ

قبض على القنبلة بكلتا يديه ضاغطا على القوس لئلا يطير فتنفجر ، وبأسنانه الحادة القوية سحب الزردة التي تثبت القوس بالقنبلة ، وبصعوبة بالغة أستطاع أن يحافظ على توازنه وينقلب على بطنه راميا بكل ثقله على يديه الضاغطتين على القنبلة .

●

في الصباح وصل المطاردون المكان .. كانت آثار الزحف تشكل ثلماً عريضاً في التراب الرملي المغطى بالدم الخاثر .. تقدم بعض الجنود نحو الجثة ، ولكن قائدهم صاح عليهم لكي لا يقربوا الجثة قبل التأكد من أن لا حياة فيها .. وقبل أن ينهي كلمته الاخيرة كان قد أفرغ عدة رصاصات فيها .. كانت الجثة هامدة ملتصقة بالتراب ملتحمة فيه ، وهنا أوعز الضابط

لجنوده بالتقـدم ..

حلقة كثيفة من الجنود حول الجثة ، كل ينظر اليها محدقا فيها هوذا (المخرب) الذى حرمهم لـذة النوم طوال الليل ، وليتهم يفهمون يوما ان هذه الجثة جثة انسان يريد أن يعيش بسلام ، انسان يريد وطنـا حتى لو كان على متر مربع من الارض !!

مد أحدهم رجله ذات الحذاء الضخـم وقلب الجثة على ظهرها .. وكان ما كـان !!

فالذى حدث شيء رهيب .. شيء هائـل .. ورغم ما به من هول فقد حدث في لحظة .. لحظـة أصطراع الموت مع الحياة .. لحظة الضجيج والعويل والمواء والانين ، لتأتي بعدها لحظة الصمت .. الصمت الذى يأتي ليسدل ستائره السوداء على الحياة ..

البقيعة ٧٩/١٠/١٢

ابو محمـود

* ☆ *

ركب ابو محمود حماره الهزيل ونهر بقراتـــه أمامه متجها نحو المرعى ، تاركاً خلفه القرية الصامتـة تتثاءب بكسل .. كانت خيوط الصباح تشـق سدول الليل السوداء ، ونسيم ما قبل الفجر النقي يهب مـن البعيد بتموجات متواصلة تقبل الاحساس ، فتحركـــه فيثور بدوره ليستيقظ ويبدأ يومه بانطباعات كثـــيرة متنوعـــة ..

أصوات الاجراس المتدلية من رقبات البقرات ،

كانت تكسر الصمت وتلتحم ببعضها لتخرج لحناً خالداً هو من المميزات الابدية للقرية ..

هذه الحياة الهادئة الوديعة جعلت من أبي محمود رفيقا أمينا للطبيعة ، بل ابنا بارا لها .. كيف لا وهو ربيب الجبال والوهاد ، أليف الطيور ، سنوات طويلة خلت بفصولها المختلفة وهو يتنقل بين أحضان الطبيعة مع بقراته . انه يذكر جيدا عندما كان صغيرا مع والده .. لم يكن يومها راعيا بل كان فلاحا يبذر الحبوب ويحصد الخير ، متحملا قسوة الشتاء وحرارة الصيف .. « كم من قطرات عرق بذرتْ على أرضك الطيبة يا بلدى !! لقد اعطيتنا القمح والشّعير فعشنا وعاشت معنا حيواناتنا . وظلت الدنيا بألف خير حتى كان يوم فاذا بالفذائف المسعورة تسقط على رؤوسنا وتقوض كل شيء ويومها أصبحنا لاجئين .. » .

عبارة تقطر ألما وأملا يكررها ابو محمود دائما بمناسبة وبدون مناسبة فكأنه يقول للزمن قف عند ذاك اليوم المشؤوم ..

أصوات الاجراس المتكسرة على سفوح الجبال ونسيم الفجر المنعش تحرك احساس أبي محمود وتغمره بسعادة مفاجئة وفكرة حملة تسيطر عليه ، لم لا يزور

بعد غياب طويل ؟ لم لا يزور اطلال قريته التي كانت أما رؤوما له ، دار الزمان عليها فأرداها صريعة تقطر دما .. ولكن لا .. لا .. تعقل يا أبا محمود هل ستكفر (بالقانون) الذى جعل ارضك وبيتك حراما عليك ؟ ! !

وصل ابو محمود حقلا حصد حديثا ، وانقطع حبل أفكاره عندما شاهد اقبال بقراته على بقايا السنابل والقش .. فنزل عن حماره الذى يريد أن يأكل هو الآخر . انه قادم على فصل عمل كثير شاق ، وربما يموت ، فشباط بلادنا ظالم لا يرحم .. لا يهم تسلم (حجله) و (نجيمه) وغيرهما من البقرات ، هذا المهم ..

كانت الشمس قد ارتفعت قليلا واخذت ترسل خيوطها لتلون قمم الجبال العالية بلونها الذهبي ، وتبخر ما جمعته الليالي الصافية من ندى ورطوبة .. وعاوده الشعور بالسعادة ، فتجول قليلا بين الاحراش ثم انتقى له صخرة مشرفة جلس عليها يتأمل الدنيا حوله .. وهبت النسمات الصباحية في فتور لذيذ فداعبت تجاعيد وجه ابي محمود ، فزادته غبطة وسعادة ،وتملكه شعور غريب .. إنه يود لو يغني رغم كبر سنه التي لا تسمح له بالتصرف كالرعيان الشباب .. ولكنه عدل

عن الفكرة بعد أن تحسس عبه فأخرج ارغوله البلدي وسكب كل ما في قلبه من حنان حار ، وذكره لحن المزمار بـ (عبده لعيّب القصب) والدبكة البلدية ، وذكّره كذلك برفاق الصِّبا ، ببيته ، بأبيه ، بأمه رحمهما الله ، لقد ذكّره لحن المزمار بماضيه الجميل ..

توقف عن العزف فجأة .. ثم نزل عن الصخرة متجها نحو بقراته ليجمعها من جديد في قطيع واحد وليتابع سيره بعد ان صمم على شيء .. شيء خطير.. وارتفعت شمس الضحى حارة منذرة بنهار حار .. يوم من ايام آب ويا ويلنا من حر آب اللهاب ! ولم يمض وقت طويل حتى وصل ابو محمود وقطيعه الى الهدف.

رائحة أرضه ..وعطر قريته يملآن كيانه .. ترك بقراته ترعى بحرية مطلقة وراح يسير في الحقل وهو يشم رائحة الارض كما لو انه يمسك بيديه خيوط ايامه الهاربة .. وراح يتفرس في الارض ويتأمل الاشجار القريبة والبعيدة ثم .. ثم وصل القرية .. ترى هل نسي الطريق الى بيته ام لا يزال يذكره ؟ البيت في الحارة الشرقية وامامه شجرة تين .. وتراءت شجرة التين العزيزة على قلبه ، فهرع اليها مسرعا بغريزة جارفة هي مزيج من الشوق الجنوني والخوف .. وخلف التينة

وقف البيت صامتا حزينا ، اقترب ابو محمود منـــه ، ودفع الباب برفق ، وبشيء من الحذر ، فأحس ببرودة الخشب ، ببرودة الموت ورائحته الكريهة ، ووقف على المصطبة بقلب ذاهل وعينين دامعتين ..

ـ آه !! .. والدى ؟! هو ذا أبي بوجهه الصامت الحزين ولحيته البيضاء كالحليب يجلس في ركن البيت يتلو ، كعادته ، آيات حفظها في مطلع الشباب ويرددهـا بخشوع ورهبة .. وهذه أمي !! امك يا أبـا محمـود بضفائرها المدلاة على ظهرها وهي جالسة تغسل الملابس وها أنت ذا يا أبا محمود مع اخوتك واخواتك تمـــلأون البيت حركة وحيـــاة !!

واستيقظ ابو محمود فجأة من الحلم الذى يلفه على نعيق غراب آت من بعيد ، فاقترب من النافـذة وهناك شاهد الجامع الذى لا يزال راسخا ـ مكانـــه بقبته ومئذنته تتحديان الزمن وطول الانتظار ، وخيـل اليه أنه يسمع اذان الضحى ينبعث رقيقا رقيقا ثـــم يتلاشى رويـــدا رويـــدا ..

وعاد من الشرفة ، وتفقد جنبات البيت قطعة قطعة وتذكر الطاقة الصغيرة في الحائط قرب الداخون حيث كانت توضع الاشياء الطيبة ..

وخرج من البيت ، وعلى جـــذع التينة حيث ولدت اطيب احلام طفولته ، وقف أبو محمـود وراح يفتش عن اسمه الذى حفره على الجذع ، وتألم كثيرا لم يعد لاسمه اى أثر ، فقد محته الايام بتراكمهـا .. ثم تسلق التينة بخفته القديمة ليقطف من ثمارها التي أصبحت محرمة عليه .. أكل وأكل .. وأكل ! كم هو حلو ولذيذ هذا الثمر !! ثم نزل عن التينة وتقـــدم من البئر التي طالما روّت ظمأه، فشرب وغسل يديه ووجهه .

وهناك .. على حافة البئر تحت ظل التينـــة ، جلس أبو محمود يجتر الذكريات .. ويا ما أكثرهـــا ، فكل صغيرة وكبيرة اصبحت ذكرى جميلة عزيزة عليه ولها محلها في عقله وقلبه .. لقد شعر بالسعادة الحقة .. سعادة تمسح كل حزن وكل خـــوف .. وطفت القناعة على أحاسيسه ، وشعر باسترخاء وفتور ورغبه ملحة الى النـــوم ..

وأفاق ابو محمود على أصوات عالية قـــاسيـــة حوله .. وفي لحظة فهم كل شيء ، اذ لم يسمع رنين الاجراس ولم يشاهد بقراته ، فقد سيقت الى قـــلب (الموشاب[1]) .

وسيق هو نفسه الى مركز البوليس .

1) الموشاب ــ المستوطنة .

أسئلـــة الاطفال

* ☆ *

ما إن علمت ابنتي بأنني مسافر حتى اســرعت الي ولفت يدها الصغيرة حول عنقي وجعلت تقبلنــي بكرم حاتمي ..والسعادة تغمر وجهها وكيانها كله .. بينما شرعت اضحك ضحكة تشي لها بأنني افهم قصدها جيدا .. ابعدتها عني قليلا ثم قلت لها مداعبا ..

ـ بس .. بس .. يكفيك ضحك على ذقني .. سآخذك معي قد ما أخذني ابي معه ..

ـ وكم مرة أخذك جدى معه ؟؟

نظرت اليها وقلت بصوت متقطع كمن يستعيد شيئا من ذاكرته ..

ـ اخذني .. أخذني .. ولا مرة .

وانفجرت ضاحكا بينما اخذت هي تصرخ بدلع واضح وتضربني بيدها الصغيرة على صدرى وخدى ..

ـ لا .. لا .. أنت تمزح .. خذني معك .. انا أحبك يا بابا .

فقاطعتها ضاحكا :

ـ موافق على شرط ، حكي كثير وقروشه ممنوع! فاهمه !

وعاد الصفاء الى وجهها الملائكـي الجميـــل ، وبصوت رقيق منغم قالت لي .. متجاوبة معي فـــي المزاح :

ـ أنا من جهتي موافقة .. لطش كف .. بس بدى كـلام رجال هه !!

قلت بدورى وكلي اعجاب بطفلتي :

ـ طبعا طبعا .. كلام اجدع رجال !!

والحق يقال ان ابنتي هذه شيطانة من شياطين الارض . فهي لا تزال دون الخامسة الا أنها تعجـــز قاضيا معزولا لكثرة أسئلتها ودقة ملاحظاتها وكما يقول جدها العجوز ، جيل واع يلحس الدبس عن الطحين ، والدنيا آخر وقت .. سألته مرة وهي تجلس في حضنه:

ـ ايش هذا يا جدى ؟

وكانت تقصد لحيته .

قـال لهـا ..

ـ هاى يا جدو .. كريمه .

نظرت اليه باستغراب وقالت :

ـ لا انت بتكذب علي .. هذا شعر .. جارتنـا كريمة ..

وفعلا كان لنا جارة اسمها كريمة .. لم يحتمل والدى هذه المداعبة البريئة وما كان منه الا أن يزق على كفه وناولها صفعة جعلتها تهرع الي باكية لائـذة ..

●

كان الوقت صباحا .. والطقس ربيعيا لطيفا ، وكان الباص يسير بأقصى سرعته متجها نحو حيفا .. وكانت ابنتي تجلس الى جانبي فرحة راضية تنظر الى الاشجار والمنازل والحقول الراكضة للاتجاه المعـاكس .. لقد أعادتني ابنتي الى ايام زمان .. ايام الطفولة.. ويا لها من طفولة مغلولة مقهورة !! كنت في العاشـرة عندما ركبت السيارة لاول مرة .. ولسوء حظي فقد اصابني دوار شديد وقيء ، الامر الذى أغضب والدى كثيرا فنهرني بقسوة وشتم الساعة التي وافق فيهـا

على أن أسافر معه .. ثم اقسم ألا يأخذني معه بعد ذلك أبدا ..

وعلى الرغم من قسم والدى فقد ركبت السيارة مرة ثانية .. أو على الاصح حملت فيها .. لقد كنت فاقد الوعي تماما اذ سقطت عن سطح الدار وتهشمت عدة أعضاء في جسدى .. ولم يكن مفر من نقلي الى المستشفى ..

وأعادني صوت ابنتي من غياهب الماضي :

- بابا اسمع .. اسمع !! ناس كبار وما بيعرفو يحكو مثلنا ..

قلت لها موضحا

- لا يا حبيبتي بيعرفو يحكو وبيفهمو علي بعض كمان ..

قالت والدهشة تطل من عينيها العسليتين :

- ولكن انا سامعه حكي ومش فاهمه شي ..

قلت وانا اضحك :

- طبعا مش فاهمه ، لانهم ما بيحكو عربي .

- وايش بيحكو ؟!

- عبراني ..

- ايش يعني عبراني ؟؟

قلت موضحـا :

ـ احنا يا حبيبتي عرب بنحكي عربي وهم يهـود بيحكو عبراني فاهمه ؟؟

لم يكن شرحي هذا بقصد افهامها فقط ، فقد كان من أجل اسكاتهـا ايضا ..

●

وصلنا حيفا .. وانهيت عملي الذى جئت مـن أجله ثم تفرغت لصغيرتي .. كانت تسير الى جـانبي بتمهل والدهشة تعقد لسانها .. وظل معقودا حتـى وقفنا امام احدى الڤاترينات لنتفرج على الالعاب الكثيرة المتنوعة .. سألتني وهي مبهورة بما ترى :

ـ بابا .. بابا لمين كل هالالعاب ؟

قلت لها بهدوء :

ـ لصاحب الدكـان ..

ـ ومين صـاحبهـا ؟

ـ واحد يهودى ..

ـ يعني للي بيحكو ما بنفهم عليهم !

قلت ضاحكـا :

ـ ايوه .. ايوه .. بالضبط ..

نظرت الى جهة اخرى من الشارع مشيرة الـى

احدى الفاترينات المزينة بشكل جذاب وكأن دافعا غريزيا يحثها على السؤال :

- طيب .. وهذاك المخزن ؟

- كمان لواحد يهودى .

شيء ما يدور في رأس طفلتي الصغيرة .. المسكينة .. ذنبها الوحيد انها موهوبة !! لقد جعلتها الايام ترى وتسمع وتحس كما يرى الكبار ويسمعون ويحسون .. قالت بحنق هذه المرة :

- والبيوت الحلوة والجنانين كمان لليهود ؟

قلت لها والمرارة تنزف من كياني كله :

- ايه يا بنيتي !! كله .. كله .. الهن .. الهـ.. ن ن ن !!

خرجت جملتي ممطوطة على شكل تنهد طويل خارج من قلب اثقلته الايام بويلاتها .. ولم أكن ادرى اذا كنت اقول جملتي هذه لابنتي ام لاعزى نفسي بها؟ وقبل أن تعود لاسئلتها جذبتها من ذراعها قائلا :

- شوفي شوفي ما أحلى هالعروس .. انها حلوه ودمها خفيف مثلك ..

دخلنا الدكان واشترينا الدمية .. أخذتها ابنتي برفق وضمتها الى صدرها فرحة راضية ..

وفي المساء جلست ابنتي بجوار امها والدميـة لا تفارق حضنها ولكن علامات التعب وارهاق النهـار كانت لا تزال بادية على وجهها الملائكي .. كانت صامتة على غير عادتها .. وهذا ما جعل امها تحار في امرها. كانت تحثها على الكلام ومن حين لآخر كـانـت تجس جبهتها براحة يدها لتتأكد من انها مريضة .. والطفلة صامتة لا تستجيب لامها .. أما أنا فاني اعرف سبب هذا الصمت .. هؤلاء الاطفال .. غريب أمـرهم .. وأغرب ما فيهم انهم لا ينسون .. ما يُسَجِّلونـه في صدورهم يبقى محفوظا هنالك حتى آخر العمر !!

قالت أمها تخاطبها معتقدة بأن صمتها هـذا ناتج عن ارهـاق النهـار :

ـ قومي يا حبيبتي نامي .. وبكره بتلعبي عـلى كيفك !!

نظرت الطفلة الى امها وكأنها لم تسمع ما قالته لها .. قالت بصوت حزين كأنها تشكوني لها :

ـ سأمعه يا ماما .. قال كل الالعاب والدكاكين والبيوت والجنائن .. كل شيء لليهود .. واحنا مـا لنا شي !!

تبادلت وزوجتي نظرة حائرة .. وقبل ان أتفوه

ولو بحرف واحد قالت لها أمها :

ـ لا يا حبيبتي مش صحيح .. مين بيقول كلـه لليهـود ؟!

ـ البابا بيقول .. البابا ما بيكذب .. صحيح يا بابـا ؟!

قلت متجاهلا ما قـالته :

ـ قومي يا حبيبتي نامي .. ونيمي اللعبة حدك.. ولم تهتم لكلامي ابدا .. صمتت برهة ثم قالت والفرحة تهز كيانها الصغير الطرى العود كله :

ـ بابا !! ماما !! ليش ما بنصير يهود ؟ هه ؟!

اذا صرنا يهود بيصير كل شي النا .. مش هيك يـا بابا ؟ ؟

نظرت الى طفلتي شارد اللب محتارا ماذا اقول ! وأحسست بأن اطفالنا لا يعيشون طفولتهم .. لكـأن الطفولة الهادئة الناعمة التي يحكون عنها محرّمة عـلى أطفالنا . انها طفولة ليست لنا .. أطفالنا يولدون رجالا مثقلين بأعباء الحياة وهمومهـا ..

خرجت من فمي آهة طويلة لم استطع حبسها .. ضممتها الى صدرى وقلت لها كابحا جماح دموعي :

ـ لا .. لا يا حبيبتي انت فاهمه غلط .. قومـي

نامي .. مسكينة اللعبة تعبانه من السفر ونعسانـــه كثير كثير ..

كلمات لا معنى لها خرجت من فمي .. خرجت لتسكت طفلة دون الخامسة .. ولكن سيلا من الكلمات يهدر في داخلي .. صوتا أكاد اسمعه في كل دقة مـــن دقات قلبي ..

ـ صبرا يا بنيتي .. ستصير هذه الاشياء .. كل الاشياء .. سيصير هذا العالم ملكا لك ولكل الاطفال في العالم .. في يوم مـا .

الطائر واحلام العـودة

* * *

لو يعرف الصياد ان للطيور أوطاناً تموت مـن أجلها لما حمل ذلك الشيء النافه المسمى (بندقيـة) ليمتع نفسه بصيدها .. هذه المخلوقات المجنحة تشكل دولة كبيرة ، لها انظمة وقوانين ، ولها غرائز تهتـدى بهديها وتسير بما توحيه اليها به .. فتبني أعشاشها وتحضن بيوضها وفراخها بحنان ، وتعرف ايضا ، كيف تشهر مخالبها ومناقيرها المسنونة اذا داهمها عدو .. ثم تهاجر ولكنها لا تنسى اوطانها ابدا ..

لي صديق أقل ما يقال فيه انه مجنون صيد .. لكأنّه خاق ليأكل ويصطاد ويسخر مني لاني أعطف على

هذه المخلوقات فأعتني بها واصرف الكثير من وقتي في رعايتها وتربيتها عندى منفقا عليها الشيء الكثير ..

جاءني مرة بطائر من طيور السمان الجميلة .. لقد اصيب هذا الطائر المسكين بجناحه ، أخذت الطائر الجريح فعالجته حتى شفي تماما ثم وضعته في قفص كبير خاص .. وللسمان منزلة خاصة في نفسي .. لونه الجميل وريش صدره المبرقش ، وتغريده المتقطع حتى نفوره من الانسان وحذره من مكره وخداعه ، كل هذه الصفات جعلتني احب هذا النوع من الطيور ..

كنت فرحا بضيفي الجميل ، ولم أبخل عليه بشيء ابدا .. كنت أنثر له الحبوب بسخاء حتى اذا عافها بحثت له عن الديدان الصغيرة وأحضرتها له .. انني احاول شراءه بمعاملتي الحسنة له ليطمئن لي فيقنع ويألف موطنه الجديد .. فينسى وطنه الاصلي ويكف عن التفكير بالعودة !!

ولكن جهودى كلها ذهبت سدى .. فطائري الجميل لا يهدأ ابدا .. فكأنما يريد أن يحطم جدران هذا السجن اللعين ..

شيء ما يدفعه الى العودة .. العودة الى الوطن المقهور المندثر تحت زحوف الجليد وقسوة الصقيع

.. لا شك ان شمس نيسان الدافئة تذيب الثلوج الان وتفك الاغلال عن ربى الوطن فترفع الزنابق رؤوسها الطرية في الهواء الطلق .. ولا شك في ان طلائع الطيور العائدة قد وصلت الى أوطانها وعادت الى دفء أعشاشها فرحة مغردة .. وطائرى المسكين لا يزال خلف القضبان .. وهذه القضبان اللعينة تأبى ان تنزاح .. لقد حرمته الهواء الطلق .. وحرارة الشمس الدافئة .. ومتعة الحياة .. وها هي ذى تشده الى الهلاك المحتوم .

وكان أن مات طائرى الجميل .. مات والعودة حلم أخضر يكحل عينيه .. مات شهيدا فداء للوطن .. لقد مات .. ولكن رأسه كان خارج القضبان ! !

السنديـانـة

* ☆ *

ليس من الغريب ان تهب عاصفة وتقتلع شجرة .. أى شجرة .. ولكنك لو زرت قريتنا وشاهـدت الساحة العامة والسنديانة الضخمة التي تظلل قسـمًا كبيرًا منها ، لحزنت وانتابك ذهول مفاجىء ..

ـ يا أسفاه ! .. صحيح انها بلوطة وما عليهـا ثمر ، لكن القعدة في فيئها تسوى ليرة ذهب ..

والحق يقال ان هذه السنديانة كانت شيئـا رائعا .. ناهيك عما دار حولها من خرافات وأقاويـل .. فبعضهم يقول ان سيدنا (الخضر) كان في البريـة وجلس ليرتاح فأخذته غفوة وكان حر ذلك النهارشديدا جدا فما كان الا أن انشقت الارض وخرجت شجـيرة

صغيرة لتقيه بظلها من حر الشمس ثم أخذت هذه الشجيرة تكبر وتكبر حتى صارت بهذا الحجم الهائل .. وبعضهم يروى هذه القصة نفسها ولكن عن مارجريس ويقسم أغلظ الايمان ان لا دخل لسيدنا الخضر بها .. ومهما تضاربت الاراء واختلفت الاقاويل فانهم يتفقون جميعا على تقديسها والمحافظة عليها .. ومع مرورالزمن أصبحت سرا غامضا نخافه ونقدسه ..

قال الشيخ عبدالله ((ياما لعبنا في فيتهاوتعربشنا على فروعها . وياما وقعنا عنها ! انا العبد اللي مكلمكو وقعت عن رأسها وما انخمشت .. الله حارسها وسيدى الخضر مباركها .. احفظها تحفظك .. اقطع ورقة من اوراقها تفقرك .. محمود الدعقا قصف منها قصفة انكسر ذراعه قبل غياب شمس ذاك اليوم ... رعنزة نواف العورا ماتت لماأكلت من ورقها بعد ما كانت تنط زى الغزاله)) .

والشيخ عبدالله هذا صادق لم يكذب في حياته ولو كذبه بيضاء واحدة .. وهو أكبر اهل قريتنا سنا وهو سجل أخبارها وجامع نوادرها فاذا ما تحدث فما عليك الا أن تصغي .. فعدم الاصغاء خسارة كبرى!

●

وكان ذلك اليوم المشؤوم .. فعلى مرأى الصغير والكبير هوت السنديانة العملاقة .. شيء مذهل حقا .. شيء لا يصدق .. أن تتحرك الرياح فجأةفتستحيل عاصفة فظيعة وتصرع السنديانة .

قال شيخ طاعن في السن :

ـ يا رب ارحم أبناءك الضعفاء على الارض ..

وقال آخر في ذهول :

ـ هذا غضب رباني .. يمكن قصرنا بحقها وما حافظنا على قداستها مثل أجدادنا ..

وقال جدى :

ـ من سنين والبلد مش موفقة بطرشها وزرعها والارض بخيله ، وعمرها ما كانت بخيله ، والخير عم بيقل ..

وعلم الشيخ عبدالله بمصرع السنديانة ، وكان قد رقد رقدته الاخيرة فقال محذرا :

ـ آه .. أيام .. كل شيء زايل الا وجهه هالكريم .. ما للدنيا مقلوبه ونجم الشر راكب نجم الخير؟! واهل بلدنا الطيبين ما عادوا طيبين .. وتفرقوا ايدى سبأ مصرع السنديانة يا اولادى لازم يوحدكو وما يفرقكو اسمعوا كلامي يا اولادى .. اكبر منك بشهر اخبر منك

بدهر .

أنهى الشيخ كلامه .. وقد ترك في السامعين اثرا ملحوظا كان يحكي بثقة كبيرة .. ثقة من خبر الماضي وسبر أغوار المستقبل .. كان يحكي بصوته القوى النبرات رغم ايغاله في السن .. ولكن هذه المرة كانت تشوبه مسحة حزن عميق .. أوليستالسنديانة غالية على قلبه !! لكأنه كان يرثيها ويرثي نفسه ويرثي الناس جميعا ..

ومرت الايام فمات من مات ورحل من رحل ، وفقد من فقد .. واما الذين بقوا في بلدنا فقد أخذوا يألفون شكلها الجديد .. أو هكذا خيل لهم .. واما مصرع السنديانة فقد أخذ مكانه في قلوبهم واصبح تاريخا رسميا للاحداث والمناسبات ..

- ابني ولد قبل ما انقلعت السنديانة بيومين ..
- كانت (دَخْلة) ريا بعدها بشهر ..

وكان يوم .. استيقظ اهل بلدنا على خبرجديد هزهم هزا .

قال (سعيد الاقرع) وهو يدعم قوله بأغلظ الايمان أنه شاهد السنديانة الصغيرة الفضة التي نمت في نفس المكان السابق للسنديانة الام ..

قـــال البعض :

ـ هذا مار جريس علم بالخبر ، طار على حصانـــه وزرعها في الليل . ولا مين شاف ولا مين درى..

وقال البعض الآخر :

ـ لا هذا سيدنا الخضر مخضر اليابس !

وقال جدى يصفته اكبر اهل القريـــة ســـــنا وخليفة الشيخ عبدالله رحمه الله :

ـ يا ابنائي بلا قيل وقال ، الاصل الطيب لا يمكن يموت .. وان مات الجذع ما بيموت الجذر .. الحمد لله الارض في بلدنا طيبه ونجابه .. والاصل طيب ..

وأخذت السنديانة الصغيرة الخضراء تكبر يوما بعد يوم .. كانت ترفع رأسها لتطل على العالم مـــن جديد ..

وكانت براعمها الصغيرة الطرية تتحدى الفناء '

محروسه

* * *

يقولون الخائف والبردان لا ينامان ..

وأم مفلح بردانه وخائفه في آن واحد .. فكيف ستنام اذن ، في تلك الليلة ؟!

تململ أبو مفلح بجانبها ، ومن خلال تثاؤبه المطوط قال :

ـ اخزى الشيطان يا وليه .. واتكلي على ربك ونامي ..

وتجيبه هي بعصبيتها المميزة :

ـ كيف أنام ومحروسه بايته برّه ؟

ـ لكن مش اول مره تبات برّه !

- ومش كل مره تسلم الجره !

قال بلهجة ساخرة :

- طيب ، قومي خدى لك ركعتين لوجه الله ، على حساب محروسه !

- العصفور بتفلّى والصياد بتقلّى .. هذا اللي حضرتك شاطر فيه .. المسخره وطول اللسان .. خاف ربك يا شيخ وخلينا نظل نشوف لقمة العيش..

ويمصص أبو مفلح شفتيه ثم يضحك ضحكة .. مكبوته .. ولكنه يصمت بعد أن يغير وضعه في الفراش استعدادا للاستسلام للنوم .. وكيف ينام وبجانبه امرأة ملحاح تسكت قاضيا معزولا ؟؟

قالت وكأنها تكلم نفسها :

- أنا اللي مخوفني عليها انها معشّره .. جمعه جمعتين ، ويمكن يوم او اثنين وتولد .. يعني اذا قتلها الوحش - لا سمح الله - بتكون خسارتنا خسارتين ..

- يا وليّه كبرى عقلك ونامي .

- هو عاد فيّ عقل ؟!

- طيب والعمل ؟ ايش غير اننا نصبر ؟ نامي .. والصباح .. رباح ..

- صباح ايش وبطيخ ايش يا راجل ؟ هي الوحوش

صايمه الليله ؟ الحكي ما عاد ينفع .. تشدد واخطف رجلك لدار الشيخ مسعود ..

وانفجر أبو مفلح ضاحكا :

ـ أخطف رجلي لدار مين ؟ هالله .. هالله ! هي وصلت لحد هون ؟ ليش ؟ حضرته بطل سمسره على الارض ؟ ورجع للدجل والشعوذه والضحك على الذقون؟

ثارت أم مفلح ولكنها كتمت ثورتها لما عرفته من طباع زوجها عندما يغضب . واحتارت ماذا تقول أو ماذا تفعل . ورأت نفسها كالفريق الذى يتعلق بقشه .. قالت ملطفة الجو :

ـ رجع أو ما رجع هذا شغله .. المهم انا مآمنه وقلبي دليلي انه رايح يفيدنا .

ـ الاحسن ان يكون عقلك دليلك .. وحضرته واحد دجال قاعد يضحك على شوية نسوان مثلك . أى نسيت غنمه دار أبو صالح القطشا ؟ بعد ما ربطوا عنها فم الوحش عند صاحبك الشيخ مسعود لقوها مقتولة والذيب قاعد ياكلها على مهله . وزى ما قال ابو صالح نفسه ، ما كان ناقصه الا كاس عرق وشوية مازه .. الله يسامحك يا شيخه !! بيقولوا عصرنا عصر علم .. الناس اللي بيفهموا طلعوا على القمر واحنا مش

غادرين نطلع من جهلنا وبساطتنا ..

وأخذ أبو مفلح يتقلب في فراشه الدافىء ويقلب الامر من جميع نواحيه .. فهل يعقل ان يلجم فم وحش كاسر ، همه الوحيد البحث عن فريسة دسمه ، بمجرد تلاوة بعض الآيات الدينية على سكين مفتوح على شكل رقم ٧ ثم يطبق باحكام بعد تلاوة الايات ثم ما علاقة السكين بفم الوحش ؟

وراح يتعجب من أناس كثيرين لا يزالون تربة خصبة يبذر الشيخ مسعود وأمثاله أكاذيبهم فيهم فتنمو وتترعرع ثم تنتشر وتعود عليهم بالثناء والتقدير والنقود ..

وفطن أبو مفلح لقصة علي الدشورى مع الشيخ مسعود هذا فارتاح خاطره قليلا بعد أن كان قد تكدر لما هو فيه ..

وقصة الدشورى قصة بسيطة ، ولكنها على بساطتها تفش الغل .. فقد جاء الى الشيخ مسعود يوما ، باكيا مستعطفا ، وبعد أن اخرج سكينا من جيبه قال :

ـ حضرة الشيخ تسمح تربط لي فم الوحش ؟

بوغت الشيخ مسعود بادىء الامر . فهو يعلم

ان علي الدشورى هذا لا يؤمن بخرافاته وله رأى موجع فيه .. ولكنه لدهائه ومكره المتأصل في نفسه قال بهدوء مفتعل :

ـ اربط لك فم الوحش ؟؟ شغله بسيطه .. هات السكين ؟؟

فتح السكين وقربه من وجهه ، وقبل أن يبدا بتلاوة الآيات ، وما من أحد يعرف ما هي اهذه الايات سأل علي الدشورى :

ـ ولكن ما قلت ايش ضايع لك ؟

ويجيب علي بذُلٍّ مصطنع :

ـ والله يا سيدى هو يعني .. اللي ضايع لـي .. عزيز كثير ..

ـ عزيز كثير ؟ ايش رايح يكون عنزه ؟ غنمه ؟

ـ لا ما عندى معزى ولا غنم .

ـ طيب ايش .. البقره ؟

ـ لا .. لا ما عندى بقره ..

ويقول الشيخ غاضبا :

ـ هي المسألة سر ؟ احك يا ولد ! شو ضايع لك ؟ آه .. يمكن شي حماره ؟!

ـ لا .. لا .. ما عندى حمير ..

وأحس الشيخ بأن هناك مقلبا يدبر له فـازداد غضبا ، ولكنه ظل متستترا بهدوئه المصطنع :

ـ لو كان عندك فرس اصيلة قلنا الفرس ..احك يا ولد ايش ضايع لك ؟

ـ والله يا عمي الشيخ هو اللي ضايـع لـي .. قصدى اللي خايف عليه .. هو الكرم ..

ـ أل .. ايش يا ولد يا دشورى ؟ جنابك جاى تتسلى علينا ؟ امش من قدامي قبل ما تطلع في راسـي .. هه !!

ـ لا .. لا .. عمي الشيخ .. والله صدقني .. انا مش جاى اتسلى . بيقولوا انه في وحش كبير كبـير داير من بلد لبلد داير يبلع الاراضي .. وانا يا عمـي خايف على كرمي .. قلت لحالي مالي غيرك يساعدني.. بتربط لي فم الوحش عنه .. وتحمي لي اياه .. ومن جهة الاجرة .. تكرم يا سيدى .. حاضر اعطيك قـد ما بتاخد من السمسره واكثر شوى ..

●

لقد مضى ما مضى من وقت وأم مفلح تتقلب في فراشها زافرة مولولة .. وأبو مفلح يحاول تهدئتهـا ولكن دون جدوى ، فالرزق غال وبدو اللي بيحافظعليه

.. جملة ترددها أم مفلح دائما ..

عند طلوع الفجر ، شد أبو مفلح عزيمته وخرج باحثا عن محروسه .. محروسه .. البقرة الطيبة ، عمود البيت .. اللبنة والجبنة والسمنه البلدى والحليب والعجول .. حقا انها لمصيبة كبيرة اذا وجدها مقتولة .. وتصورها ممددة على العشب الاخضر مبقورة الكرش متراخية القوائم ، فعلا الدم الى قمة رأسه وأحس بقشعريرة تهز كيانه وبدموع ساخنة تترقرق في عينيه .. ولكنه سرعان ما طرد هذه الفكرة السيئة من رأسه.

وأفاق من تخيلاته ومخاوفه على أصوات الطيور التي جفلت وبدأت تفر هاربة ..

وأفاقت الطبيعة على ضوء النهار .. كأنها عروس خرجت لتوها من حمام ساخن .. رائحة البطم والميرميه والصعتر انفذ ألف مرة من أفضل العطور .. هذه هي الارض .. فما أكرمها وما أطيبها واغلاها .. هذه هي الارض التي تَرَبّى فيها وجلس على كل صخرة من صخورها واستظل تحت كل شجرة من أشجارها أعطاها حبه كاملا وأعطته هي ايضا حبها وخيراتها .. وكما خاف عليها أجداده القدامى بالغريزة ، يخاف هو ايضا عليها بغريزته وبعقله ! ..

وعاد فجأة الى الواقع .. صوت مألوف لـديـه أعاد البهجة الى روحه البائسة .. انه صوت يعرفـه جيدا .. وكيف لا يعرفه وهو صوت محروسه ؟؟

وهرع مسرعا في اتجاه مصدر الصوت .. انـه مشتاق لملاقاتها .. واقترب اكثر فأكثر و و .. ما هذا؟

لقد ولدت محروسه !! يا الله !! لقد ولـدت عجلين .. توأمين .. !

* ☆ *

ما إن قرر يوسف العبدالله ان يتـــرك الارض ويغادر القرية باحثا عن شغل ، وأمه العجوز المسكينة تأكل نفسها غيظا وكمدا .. خاصة بعد أن ذهبت كـل مساعيها هباء ولم تستطع اقناع ابنها بعدم مغادرةالقرية من أجل رغبة طائشة سيطرت عليه ..

ومن أعماق قلبها .. قلب الام المكلوم صاحت في وجهه :

ـ رح يا يوسف يا عديم الاصل .. اشـكيـــك لربك ولعظام والدك في القبر !

وتتدخل احدى الجارات :

ـ حرام عليك يا أم يوسف ابنك متغرب ..اجبرى بخاطره وادعي له بالخير .

وتعقب أم يوسف مغتاظة :

ـ اسكتي الله يخليك ! أكل العصي ما هو مثل عدها .

وتحشر ثالثة انفها :

ـ عصي ايش يا شيخه ! شاب زى الجمل ان ضرب الحيط بيده يهده يسرى له أمره وخليه يطفش يلحق نصيبه .. وحياتك ماواحد ظل في البلد الا وفقر.

وتحتد أم يوسف من جديد :

ـ أيوه .. أيوه هذا اللي ناقص .. كل واحده تركب لها طحنه : هو بسلامته عاطل شغل او صايع؟ أبوه الله يرحمه تارك له ارض بطلع ذهب ..

وترتفع موجة من الضحك المائع لتنصب على رأس أم يوسف المسكينة .. فتزيدها حزنا فوق حزنها .. ومن بين الضحك النسوى المطوط ينساب صوت وقح يترحم على تلك العجوز التي لا تعرف دربا للسعادة

ـ مسكينة يا أم يوسف .. الدنيا تدور وتلف وانت مطرح ما عملها شنقوه .. احلمي يا اختي بالارض احلمي وبعد ما تنادى لله يا محسنين يمكن تصحي ..

وتصمت أم يوسف مرغمة فهي تدرى ان اليوم ليس كالامس .. والله يرحم ايام زمان .. ايام القلة والبسط .. ايام كانت المرأة الى جانب رجلها كتفا الى كتف في الحقل وعلى البيدر وفي الحوش وفي .. وفي الفراش .. ايام حيث لا فرق يذكر بين الرجل والمرأة يا الله ! ماذا حدث لهذه الدنيا ؟ الرجل ترك الارض وراح يلهث وراء رغيف الخبز الجاف المجبول بالعرق والدم في الشركات والكيبوتسات .. حتى يوسف الذى ولد ونما في الارض وطالما تمسك بها .. جاء اليوم الذى يلفظها فيه ويترك القرية ليتسلم عملا .. ليصبح اجيرا في الكيبوتس !!

يوسف الفلاح الشاب القوى البنية المفتول الساعدين ، مؤهل لان يتقن أى عمل يتعلق بالارض ، لقد عمل ومنذ طفولته المبكرة ، في الحقل من ارواء الى حراثة الى قلب الى تحطيب ، وما أسهل ان ينقل خبرته هذه الى الكيبوتس .. وما أسهل ان يكتشف المسؤولون هذه المواهب فيه فأطلقوا يده ، هو حر في عمله ما دام يؤديه باتقان واخلاص .. وظل يتنقل من عمل في الفلاحة الى قطاف ، الى تقليم وتطعيم حتى استقر

اخيرا في الاسطبل واصبح مسؤولا عن الابقار من رعاية ونظافة وتغذية وحلب وحتى في فترة التلقيح كان هو المسؤول الاول والاخير .

ولم يمض وقت كبير حتى أصبح يوسف محبوبا من الصغار والكبار في الكيبوتس .. وسرعان ما تحول الاسم ، رغما عنه ، الى (يوسى) تحببا وتقربا ..

الايام تمر .. ويوسف يعيش في حلم .. حلم جميل لا يريد ان يصحو منه .. واذا ما زار القرية فليس له حديث غير الكيبوتس وحياة الكيبوتس . وعندما كانت أمه تفاتحه بحكاية الارض المهملة والتي بدأت تتحول الى أحراش كان يضحك ساخرا منها ومن سذاجتها ويختم حديثه بالترحم عليها وعلى امثالها .

●

ويوسف ابن أم يوسف الفلاح الخجول الذى كان يحمر خجلا كلما مرت بجانبه فتاة من فتيات القرية أصبح في الكيبوتس رجلا آخر .. حقيقة لقد اصبح يوسي ، والمفروض أن (يوسي) لا يخجل ، فلِمَ الخجل إذن ؟ فبتعلمه اللغة العبرية تعلم بادىء ذى بَدْء الكلام الحلو الذى يروق للجنس اللطيف .. لقد أتقن كل أساليب الاتيكيت الحديثة وصار يعرف متى يصمت

ومتى يتحدث بجد ووقار ومتى يهزل ، وكذلك صار يعرف متى يشد خيط الصنارة بعد أن تغمز ..

وغمزت صنارته مرات ومرات .. وما من مرة خرجت الا ومعها صيد شهي .. وظلت المسألة عنده مسألة صنارة وَ تَلَهٍّ وصيد الى أن قابلها مرة ..

امرأة شابه .. جميلة .. واثقة من نفسها جدا .. يا للغرابة كيف لم يرها من قبل ؟!

وعرف منها انها حديثة العهد في الكيبوتس.. كانت وبحكم عملها خارج الكيبوتس غالبية الوقت ..

وعرف كذلك بأنها متزوجة ..

وسرعان ما تحول التعارف الى صداقة وتوطدت الصداقة اكثر بالزيارات والسهرات الحلوة التي لم يعرفها يوسف من قبل !

وحدثته عن نفسها وعن زوجها كثيرا .. وعرف انهما متحابين لا يستطيع احدهما ان يستغني عن الآخر .. وحدثها هو بدوره عن نفسه وقريته وأمه.. وكثيرا ما كان يبدى لها ولزوجها اللطيف اعجابه واحترامه لهما . وكان كل يوم يمر يزيد من صداقته لهما .. فشاركهما السهرات الدافئة الهادئة .. فيتسامرون ويضحكون .. يضحكون بمحبة صادقة ،

حتى بعدما يعتذر الزوج ويأوى الى فراشه لم يكن في الامر أى احراج ليوسف .. كان يبقى معها يتهامسان الى ساعة متأخرة من الليل ..

موقف صعب فعلا .. رجل في عنفوان الشباب وامرأة ساحرة شهيه اشهى من طبق الكنافة ! وليل هادىء ساكن لم يخلق الا لعاشقين وشيطان في داخله يعربد ويصول ويجول .. ماذا يفعل ؟ كيف يتصرف؟ انه لا يدرى ..

الى ان كان يوم .. ذهب لزيارتهما وعلى غير عادة فقد كانت لوحدها .. وعندما حاول الاعتذار والانصراف اوقفته هامسة :

ـ اجلس ارجوك .. زوجي في المدينة .. سيعود غدا صباحا .. وجرى الدم في عروقه حارا هادرا كلظى البراكين .. ولكنه تماسك وكبت عواطفه المتأججة ماذا يفعل ؟ سؤال صعب طالما حيره واقلق راحته .. هل يقدم لها محاضرة عن عاداته الشرقية الشريفة وعن حرمة الصديق ؟ ولكنه تنبه على صوتها :

ـ ما لك ؟ ماذا حدث لك ؟ زوجي يعرف بأنك ستأتي وستقضي هذه الليلة معي ..

ثم أخذته بين ذراعيها وراحت تمطر خديه

وعنقه وفمه لثما وعضـــا .

●

وفي اليوم التالي .. حاول يوسف أن يقنع نفسه بأن الذى حدث حقيقة ، ولكنه لم يصدق ، انـــه مجرد حلم .. حلم جميل رغم ما يشوبه من قلق ونـــدم .. ومرت بضعة ايام كان يتجنب رؤيتهما ، وخاصة الزوج كان يكره لقاءهما اذ كيف سيقابلهما بعد الآن وهـــو الفارق في الخطيئة حتى الاذنين ! ولكنها زارته في غرفته المتواضعة .. وكأن شيئا لم يكن ! مرحة كعادتها بل خيل اليه أنها أكثر جمالا واكثر سعادة .

واستمرت هذه العلاقة شهرا ! اجل ، استمر هذا الحلم شهرا ثم .. ثم اختفت هذه الحسناء مـــن حياته فجأة .. تماما كما ظهرت له فجأة .

لم يكن من السهل عليه ان ينسى .. لقد تعلق بها تعلقا مجنونا .. لكن الاقدار تعطي وتأخذ ومن يتقبل العطاء عليه ان يدفع من دمه ودموعه ثمنا باهظا احيانا.

وفي يوم وبعد غياب عدة أسابيع ظهرت له فجأة يا الله .. لعلها جنّية تظهر وتختفي متى تشاء ؟ وقبل أن يفكر بما سيقوله لها .. تقدم نحوها مذهولا ملهوفا ولكنها قالت له بجفاء :

ـ ابتعد عن طريقي !

قال بكثير من الحيرة والارتباك :

ـ لا افهم ..

ـ اجلس انا افهمك ..

وبدأت له بقصة طويلة .. طويلة جدا .. فهم منها انها تزوجت منذ عدة سنوات ولكن للان لم تنجب اطفالا .. التقارير الطبية تؤكد ان العقم من الزوج .. هذا كل ما في الامر .. انها تريد طفلا يسعدها وزوجها الطيب يريد ان يراها سعيدة قريرة العين .. يريد ان يراها امـا .

آه ! لقد وضحت الصورة جيدا وفهم كل شيء لم يكن حبا اذن ؟! لم يكن رابطا انسانيا مقـدسا .. انه رغبة قذرة .. اشتهاء دنس . بل قل انه لعبـة حقيرة لعبتها باتقان وعندما انتهت داست عليه .. تماما كما تفعل الدابة بعد كل عملية تلقيح ...

وفجأة تذكر الثيران .. ثيران التلقيح التي يرعاها هو بنفسه .. ما الفرق بينه وبينها اذن ؟ اللعنـة .. اللعنة عليك يا يوسف .. انك لا تزيد عن ثور تلقيـح تافه يمارس عمله بغرائزه الوقحة .. اللعنة عليك يـا يوسف وعلى أمثالك .. كلكم ثيران .. لقد تركتـم

الارض لتصبحوا قطيعا كبيرا من الثيران ..

وقفزت حياته البائسة امامه .. قفزت امامه لوحة لوحة .. طفولته .. والداه ، والده ، امه .. الارض ، القرية ، يا لها من حياة طيبة طاهرة كقلب ملاك الرحمة .. الآن فقط عرف كم كان تافها وحقيرا يوم أصغى لذاك النداء الشيطاني المجهول وترك الارض .. يوم حكم على نفسه بالخروج من الجنة ..

وفي اليوم التالي حزم يوسف امتعته وغادر الكيبوتس متجها نحو القرية وفي خاطره نغم يعزف .. الارض .. الارض .. الارض ! !

أمسية

* ☆ *

اليوم سيحتفلان بعيد زواجهما الاول ..
قال لها مداعبا وقد راقت له رؤية بطنها المنتفخ كبطيخة :

ـ ما رأيك بأمسية في المدينة ، نقضيها معا وتكون أجمل تكريم لعيد زواجنا الاول !

وتذكرت هي أن قصة هذه الامسية الموعودة ، بدأت في الشهر الاول من الزواج ، ولكن الاقساط الشهرية والكمبيالات المطلوبة منهما بعد الزواج كانت تحول دون تحقيق اى شيء حتى تحقيق امسية في المدينة .. فما يكاد يأتي آخر الشهر الا وتكون الجيوب

خاوية فتهوى كل الاحلام والمشاريع في ذلك الخواء ..

وانتبهت الى انها لم تجب على اقتراحه بعد فقالت مرحبة بالفكرة :

ـ لا بأس .. لا بأس ،ولكن هل اجريت جردا دقيقا للميزانية هذا الشهر ؟!

ويجيب بثقة تامة :

ـ بالطبع يا حبيبتي ، فقد قمت بما يعجز عنه امكر محصل ضرائب في هذا العالم .. نستطيع ان نستفضل قليلا هذا الشهر والحمد لله ..

●

شوارع المدينة ، واجهات الحوانيت ، آلاف اللافتات .. ضجيج السيارات ، الزحمة ، وكل هذه الاشياء الثقيلة على ساكني المدن . لها وقعها الخاص في نفس القروى ..

قال لها وقد أخذ كفها الرقيقة بيده :

ـ اليك برنامجنا يا عزيزتي .. سنتمشى قليلا وخاصة ان المشي مفيد لك الآن ! ثم نقضي ساعة في احدى الحدائق العامة المشرفة على البحر .. ثم نتناول وجبة دسمة في احد المطاعم ونختتم امسيتنا بمشاهدة فيلم سينمائي .. فهل من معارضة يا زوجتي العزيزة

وضحكت الزوجة ، وضحك هو ، ثـــم سارا متشابكي اليدين وبدون حرج تماما كما يفعل اهل المدن

كان الطقس حارا .. وا رطبات الفوارة فـي أوعيتها الزجاجية الخاصة تفوّر الدم وتزيد الانسـان احساسا اكبر بالعطش والحر .. وحاولا ان يتجاهـلا هذه المناظر المشهية التي يجرى لها اللعاب ، فهي ليست واردة في البرنامج ، ولكن هنالك قوة غريزية اقوى من أية ارادة ..

قال وفي عينيه شيء من الفهم :

ـ ما رأيك بكوب من العصير وساندويش ، فمـا زال امامنا وقت طويل للعشاء ؟!

ومن باب الاقتصاد ، حاولت ان تبدى معارضة وصدودا للفكرة .. ولكنه جذبها من يدها وقال مداعبا:

ـ تعالي يا شيخه ! هل نسيت انني انا الرجـل وكلمتي هي التي تمشي ، أم ان هذا في القرية فقط ؟

وضحكا بشيء من مرح الطفولة الصادق الخارج من القلب ..

ودخلا أقرب مقهى .. وجلسا الى الطاولـة ينتظران عامل المحل ليأتيهما بما طلبا من ساندويشـات وشراب ..

كان صوت المذيع في الراديو يملأ المقهى .. والطاعمون قد توقفوا عن تناول الطعام واصغوا بشيء من الاهتمام .. اضرابات في مدن الضفة وقراها اشتباكات متواصلة بين رجال البوليس والجيش وحرس الحدود المسلحين وبين السكان العزل الا من الحجارة والعصي والكرامة ..

واختتم المذيع الخبر بالاعلان عن مقتل طالبين وجرح شرطي ..

أغلق صاحب المقهى مذياعه متأففا .. أفواه كثيرة انفتحت معلقة .. أما الرجل البدين القوى العضلات الذى يجلس قريبا من المذياع فقد أخذ يشتم العرب والجيش لانه لا يعرف كيف يتخلص منهم جميعا ويرتاح الى الابد ..

حاول الزوج ا نيصمت ، حاول ان يبلع الاهانة مع قطعة الساندويش فلم يستطع .. قام من مكانه وبأدب بالغ طلب من صاحب المقهى ان يسكت هذا الرجل المستفز ..

كان صاحب المقهى لطيفا حقا .. توجه اليه وطلب منه ان يكف عن السباب احتراما لشعور

الآخرين .. ولكنه بدل أن يسكت ازداد غضبا وهيجانا تماما كالجاموس حين يرى اللون الاحمر ..

قال مخاطبا صاحب المقهى ، ومشيرا الى الزوج:

ـ احترم شعور من ؟ هذه الحشرة ؟

بلع الزوج الاهانة ثانية ، وحـــاول ان يثبت للحاضرين انه من النوع (السبور) . اقترب من ذلك الثور الهائج ليكلمه .. ليثبت له انه انسان لا حشـرة كما يتوهم .. ولكن ، وقبل ان يفتح فمه بكلمة واحدة كانت صفعة قوية جبارة تهوى على وجهه ..

ترنح للحظة ثم سقط على الارض شاحب الوجه متراخي العضلات ..

قفزت الزوجة من مكانها مذعورة ، ناسية انهـا في شهرها التاسع .. ماذا حدث ؟ وكيف ؟ ولماذا ؟

ولكنها ومن غير ان تدرى ماذا تفعل صرخت :

ـ النجدة .. البوليس !!

وجاء البوليس ، تقدم من الزوج الذى مـا زال ملقى على مصطبة المقهى ..

ـ اسمك ؟

فتح الزوج عينين فزعتين غائمتين ثم نهض على رجليه وهو يتحسس مكان اللطمة ..

واعاد رجل البوليس استجوابه ..

ـ اسمك ؟

أخرج بطاقته الشخصية من جيبه وناوله اياها .. وبعد ان تفحصها رجل البوليس مليا تقدم نحو ذلك الرجل المعتدى الذى ما زال يجلس الى طاولة البار.

ـ لا تؤاخذه .. انه سكران لا يعي ما يفعل .. .. أخذه على حدة ، وبعد أن تهامسا قليلا عاد الشرطي وفي عينيه شيء من الدهاء ، قال مخاطبا الزوج :

حظك من السماء انه اكتفى بصفعك فقط ولم يفتح لك وجهك بزجاجة بيرة .. الافضل ان تخرج من هنا حالا .

وحاول الزوج ان يقول شيئا .. ان يصرخ .. ان يشتم .. ان .. ان .. ولكنه لم يجد حتى كلمة واحدة في رأسه فيقذفها نحو اللاشيء .

وخرج .. خرج كابي الوجه والقلب ..وزوجته الى جانبه مجروحة بكبريائها .. سارا في الشارع صامتين

وبعد طول صمت قال باصقا بقايا خبز ممزوج بالدم :

ـ لقد باغتني الكلب .. اين الشرم .. و ..

وقاطعته الزوجة نافضة ما علق على ملابسه من اوساخ :

ـ لا يهم يا عزيزى ، الثعلب اسد في وكره ..

وعادا الى الصمت .. ذلك الصمت القاتل .. الثقيل ..

كان الزوج يعاني من الاحساس بالضعف والمهانة .. احساس لم يعرفه من قبل .. ماذا !! صفعة واحدة تلقيه ارضا ! واين ؟؟ امام زوجته ؟ يا للعار! وتمنى لو انه ملاكم .. اجل ملاكم ليلقن ذاك الوحش الكاسر درسا في الادب .. بل تمنى لو انه في مهارة وقوة ابن عمه الذى يتدرب على الكاراتيه ، ليعيد ذاك المنطاد المنفوخ الى حجمه الطبيعي .. لكم كان غبيا يوم كان يحتقر اللياقة البدنية ولا يعيرها اهتماما كافيا .. بل كم كان سخيفا وتافها عندما كان يسخر من ابن عمه ويعتبره اخرق حين كان يكسر الطوب اوالخشب بقبضته الصلبة القوية ..

نظر الى زوجته فجأة وقال لها :

ـ اذا رزقنا طفلا فلسوف اعلمه كل فنون الرياضة والمبارزة .. هل تفهمين ؟!

قال جملته هذه وكأنه ينفث كل غيظه وضعفه ونقمته من اعماق اعماقه ..

وحاولت الزوجة ملاطفته والتخفيف عنه ولكن

عبثا ، كان يحس وكأن لهذا العالم نهاية وهذه نهايته .

لكأن هذا العالم المترامي الاطراف بقعة سوداء بدأت تضيق وتضيق لتصبح في حجم نقطة الحبر ..

وانتبه الى انهما في المحطة .. كانا يسيران بدافع غريزى نحوها .. ونظر الى ساعته .. دقائق ويأتي الباص الذى يعود الى القرية .

سألته الزوجة هامسة :

ـ هل ستعود الى البيت ؟ والاحتفال بعيدزواجنا؟ هل نسيت ؟ لا .. لا تحزن .. فما حدث شيء تافه يحدث لاعظم الرجال ..

أخذ الزوج كفها الناعمة بين يديه وضغط عليها برقة وقال بصوت بائس :

ـ اشكرك يا حبيبي على مواساتك لي ومعذرة.. معذرة لقد احتفلنا بما فيه الكفاية ..

وارتفعت يده المرتجفة لتمسح دمعة باردة كحبة البرد الجاف من على وجنته ..

ورقة يـانصيب

* ☆ *

انزلقت اصابع سعيد المسعود على لائحة نتائج سحب اليانصيب المعلقة على الكشك الصغير المتربععلى ناصية الشارع كضاربة الودع .. انزلقت سريعة ثـم بدأت تتثاقل قليلا قليلا الى ان توقفت تماما .. فراحت عيناه تقفزان بلهفة واضحة ما بين الرقم على الورقـة الصغيرة في يده وبين الرقم على لائحة السحب .. ندت عنه آهة مكبوتة بشيء من العصبية .. تلتها ثانيةخرجت قوية حادة .. يا للحظ !! ان أرقام العددين متطابقـة في جميع المنازل ما عدا منزلة الاحاد .. شيء لا يصدق فعلا ..

وعاد يفحص الرقم من جديد .. (٣٤٧٢١٢ والرقم الرابح ، رقم أكبر جائزة في السحب هو (٣٤٧٢١٦) كانت دقات قلبه آنذاك تطغى على همسه بل تطغى على كل شيء ، كانت لحظة انفعال لا توصف شارك فيها كل من كان قريبا او كان بعيدا ورأى الجمهور الذى تجمع حول سعيد المسكين المقهور المغلول .. حملته قدماه بعيدا عن الكشك حملا .. بحث عن لعابه الجاف ليزيل مرارة حادة في فمه ولكن عبثا .. سد انهار تماما .. ومن لا ينهار في مثل هذا المأزق ؟ ملعون أبو الحظ !! لولا منزلة الاحاد اللعينة هذه لكان الان انسانا آخر .. لولا بضعة ارقام في منزلة الاحاد لكان ودع حياة الفقر التي ورثها ابا عن جد ! وهيأ لاولاده حياة جميلة طالما حلم بها ! يا للخسارة ! الحظ .. الحظ .. هذه الكذبة الابدية الكبيرة ! كوّر الورقة بعصبية حادة ، كأنه يريد أن يقذف بها وجه الدنيا العابس له .. ولكنه عدل عن الفكرة اذ طوى الورقة واعادها الى جيبه .

تساءل وهو يعبر الشارع ، ماذا كنت ستفعل يا سعيد لو ربحت الجائزة ؟ ودارت برأسه خواطر كثيرة ومشاريع متنوعة كلها اوصلته الى نتيجة واحدة جعلته

يتكدر ويبتئس .. وكما يقولون كثير المال قليل النوم .

ولكن مهما سهر وتعب سيكون في وضع افضل من الذى هو عليه الان ألف مرة .. شغل شاق طوال السنة .. وشهر بعدشهر وتذوى زهرة العمر بين التزامات البيت والزوجة والاولاد وكأنك يا بو زيد ما غزيت !

ملعون ابو الدنيا . كل شيء بثمن ، ثمن باهظ رغيف الفلافل الذى لا يشبعك بل ينفخك نفخا ، اصبح بالشيء الفلاني فكيف اذن بوجبة شهية في احد المطاعم ؟ لكأن لقمة هذه الايام تأبى ان تدخل اجوافنااو تخرج منها دون ان تكلفنا نفقات الدخول والخروج !

تبسم لهذا الاستنتاج المضحك ، فانعكست ابتسامته الصفراء على زجاج الفاترينات في الجانب الآخر من الشارع .. ايوه افردها واضرب الدنيابستين صرمايه ، فلا بد من حل وسيأتي الفرج قريبا ..

اجل الفرج .. فرج نصنعه نحن بجموعنا .. بقدراتنا .. وبقدرات هذه المياكن الهائلة عندما تصبح لنا .. فرج محتم مابعده كربة او ضيق ..

هذا ما اسمعه دائما من زميل لي في المصنع .. يقوله ويعيده ويكرره حتى حفظه كل من في المصنع من

العمال .. مسكين هذا الزميل عيبه الوحيد انه متفائل جدا . لا يهم فليتفاءل ، ليس التفاؤل عيبا .. حقيقة انه مقنع .. انه مقنع جدا .. وسأل نفسه لعله يجد في الجواب راحة .. لو حدث لهذا الزميل ما حدث لي اليوم ؟ فماذا كان يفعل ؟ وكيف يتصرف ؟ هه ! ! لا شيء .. اجل لا شيء ! بل اكثر من ذلك فهذا الرجل لا يؤمن بالحظ البتة ويعتبره وهما خبيثا يتعلق به الانسان الفاشل الكسول ممنيا نفسه بحياة افضل ..

نعم .. نعم .. تذكرت .. يوم ناقشته في مسألة اليانصيب هذه ، قال : حتى لو ربحت يا سعيد فستحل مشكلتك انت فقط ، ونحن نبحث عن حل لكل المشاكل ولكل الناس ..

منطق سليم جدا .. لكأن هذا الانسان لا يخطىء أبدا ..

قبل عدة اسابيع ربح الجائزة الكبرى رجل ترى ، قيل انه مليونير .. هذا الحظ اللعين يأبى ان يغير هذا النظام المقلوب ولو مرة واحدة ..

وتبسم سعيد مرة ثانية .. ياه !! ما له ولهذه الافكار بل من اين هبطت عليه فجأة ؟ انها تأتيه متلاحقة متسارعة كشريط من الاحداث المتقطعة ، انه شريط

مشوق حقا .. كيف لا وهو شريط حياته .. اجـــل شريط حياته البائسة .. او لعله شريط حياة كـــل انسان منسحق مثله !

وذاك الزميل لماذا يذكره وبالذات الان ؟ وهـــل حياته شريط متقطع مضطرب كحياتك يا سعيد ؟ لا ! لا ! لا! لا شك ان شريط حياته مضيء مشرق كحياتـــه رغم فقره وانسحاقـــه .. أما أنت يا سعيد فهل مـــن زاوية واحدة مضيئة في حياتك ؟ رغم فقرك لا تجـــد مخرجا من ضائقتك سوى اليانصيب .. سوى الحظ .. وبدلا من ان تحدد لك هدفا وتعمل عـــلى تحقيقه كزميلك ، ربطت مصيرك بأوهام .. ركضـــت وراء اللاشيء .. ورغم ما فيك من طيبة الا انك جبـــان ، جبان حقا .. ولن تنجح في شيء أبدا .. لن تنجح حتى في اليانصيب ، فالنجاح ليس للجبناء .. اجل النجاح ليس للجبناء !

كان سعيد قد وصل الى نهاية الشارع ويريـــد ان يعبره لشارع آخر .. لم تكن المرة الاولى التي يعبر فيها شارعا في مدينة .. ولكن ما الذى حدث ؟ انـــه لا يستطيع ان يدرك ، لعله سمع صوت احتكاك عجلات سيارة مسرعة بالاسفلت .. وربما يكون قد سقط هو

الاخر على الارض .. لا ، لا .. انه لم يتأكد من شيء اطلاقا .. كل ما يدركه هو ان شيئا ما حدث فجأة ..

ودار الشريط برأسه مرة اخرى ، واخرى .. لكأن هذا الشريط الملعون لا نهاية له .. البيت المرآة.. الاولاد ، المصنع ، العمل الشاق ، اليانصيب ، كشك اليانصيب .. الورقة التي كانت ستريح لولا منزلة الاحاد .. آه .. لا ! لا .. انها الرابحة !! واحس انها يبتسم .. واعتقد بأن كوة بيضاء تنفتح .. نعم .. نعم ! انها طاقة الحظ التي يحكون عنها ، وستنهمر الاوراق المالية منها كما ينهمر تراب القبر على الميت.. ها هي ذى الاوراق المالية تتطاير لتملأ الشوارع والارصفة .. وتخيل انه يرفع يده ليقبض على ورقة منها .. اجل .. اجل .. لعله يقبض على ورقة واحدة ولو ورقة واحدة فقط ! هذه الرياح اللعينة لا تسمح له بذلك ..انها تبعدها عن اصابعه .. لا ! لا .. ملعونة هذه الاوراق .. آه .. اوراق ؟!

اين الاوراق ؟ انك تهذى يا سعيد .. او لعلك ستجن !!

يا الله !! ما هذا الثقل في الرأس والجفنين !؟ ثقل أسود قاتم .. قاتم .. قا .. تم قا .. تـ

.. م .. آه ! !

صاح أحد المارة الفضوليين الذين تجمعوا حولَ الجثة الملقاة وسط الشارع :

- انظروا .. انظروا .. مسكين مات وقد كـوّر قبضته كأنه يريد أن يهدم هذا العالم ! !

●

(استاذى الحمـــار)

* ☆ *

في يوم من ايام الربيع المميزة بخضرتها وشمسها وطول نهارها ، اتجه (بُريش) نحو عين الماء ليطفـــىء ظمأه بجرعة ماء بارد .. كان يسير مختالا كملك عظيم في عيد جلوسه على العرش ..

ولكن عفوا ايها السادة .. لقد فاتني أن اعرفكم على (بُريش) هذا .. انه حمارى المعروف بلونه الابرش .. أجدع حمار في البلد .. فلقد قهر برد الشتاء وجوعه وتخطى الموت بعزم واصرار ، وها هوذا يعوض ارطال اللحم والشحم التي ذابت عن جسمه بخيرات نيســـان الوافرة ..

وبلدنا ايها السادة جميلة .. كل ما فيها جميل .. عروس ليلة دخلتها .. حتى قبيحها جميل .. فما ان يحل نيسان حتى تصبح قبلة المصطاف ونهاية المطاف لكل من هب ودب ومن السياح .. لقد اعتادوا أن يزوروا القرية أسرابا اسرابا .. يزورونها بنفسية المضيف لا الضيف ! فيجوبون الطرقات آمنين مطمئنين يدخلون البيوت لا (احم) ولا (دستور) فيشربون القهوة العربية ويأكلون خبز الصاج .. ولا يشكرون !

واكثر ما يميز هؤلاء الحافهم ولجاجتهم.. فاذا راق لعيونهم منظر ما صوروه حتى ولو كان محظورا.. ولكن (أم الزعل) وضعت حدا لهذه المهازل .. فقد كانت عائدة من العين مرة ، تحمل جرتها على رأسها ، والعادة في بلدنا ان توضع الجرة على الرأس من غير أن تسند باليد .. منظر كهذا صيد نادر لكاميرا سائح في بلدنا .. وبالغريزة عرفت أم الزعل ما يدور برأس ذلك السائح .. فوقفت لحظة ثم صرخت في وجهه :

ـ (قصور) يا خواجه !!

لم يفهم الغريب أن (قصور) أم الزعل تعني (أسور) بلغته العبرية .. أى ممنوع .. رفع الكاميرا نحو عينه يريد التقاط الصورة .. وقبل ان يحرك ساكنا

تقدمت ام الزعل نحوه وصاحت :

ـ شو ما بتفهم ! قلنا لك (قصور) !

قالت هذا وافرغت ما في جرتها على حضـــرة الخواجه وولت هاربة ..

واذا اعتبرنا ان التصوير هوايتهم المفضـلة .. فركوب حمير بلدنا لا يقل عنه أفضلية .. فمـا مـن حمار يقع تحت اقفيتهم الا وتناوبوه واحدا تلو الاخر..

راقت هذه العملية لشيخ من شيوخ بلدنـــا الذين اعتادوا أن يقضوا أيامهم في ساحة القرية حيث يجتمع الناس بمناسبة وبغير مناسبة .. راقت له عملية الركوب هذه .. فتبسم وهز رأسه معلقا :

ـ شكرا لظهور حميرنا التي استهوت هـــؤلاء الخواجات فألهتهم عن الحملقة بالحريم ..

ويعلق آخر :

ـ لا تغلط يا صاحبي .. ركبني حمارك اليـوم تأركب عليك بعد يرمين !!

ربما يسأل سائل وماذا عن (بريش) ؟

ذاك اليوم ، عندما اتجه نحو عين الماء ليطفـىء ظمأه .. تقابل مع فرقة من السياح .. وكعادتهم اقبلوا عليه ليركبوه .. تقدم أقواهم نحوه متحايلا عليه .. ثم

قفز على ظهره مفتتحا تمثيلية جديدة .. كان هـــذا العمل مفاجأة كبرى بالنسبة (لبريش) .. بدا مذهولا قليلا ولكنه سرعان ما جمع شتات نفســه .. تنفــض ثم قفز عدة قفزات متتالية رافسا الفضاء بحافريـــه الخلفيتين ، ضارطا .. وبلحظة كــان الغريب تحــت حوافره جسدا ممددا.. ويومها ضحك كل مــن كــان موجودا من أهل بلدنا .. حتى الذين لم يكونوا وسمعوا بالحادثة ضحكوا .. ضحكوا كأنهم لم يضحكوا من قبل وكان ضحكا صادقا خارجا من الاعماق ..

والذى اعتبر أن هذه الحادثة كانت مجرددعابة مسلية فقد أخطأ .. فمن كان يظن انها ستصل الــى المحكمة ؟!

قال الحاكم موجها حديثه الي :

- في يوم كذا من تاريخ كذا قام حمارك برفس احد السياح فكسر له ساقه وسبب له بعض الجروح كمــا وتسبب باثارة ضحك الحاضرين عليه .. أتعرف مــا معنى هــذا ؟

- ولكن يا حضرة القاضي المسألة مش حرزانه وايش يعني .. كلنا بنسقط وتتلقانا الارض ؟

- لا .. سقوطك انت شيء وسقوط الخواجـــه

شيء آخر .. لقد أهين في بلدكم .. فاهم ..

ـ وحماري أهين ايضا .. لقد فعل ما فعل دفاعا عن كرامته ..

ـ وتسخر من المحكمة ايضا ..

ـ لا يا جناب الحاكم ، المحكمة على العين والراس .. ولكن هذا ما حدث فعلا ..

ـ اش .. اش ! كفايه .. لا اريد ان اسمع شيئا .. غرامه ٥٠٠ ليرة ..

ـ ٥٠٠ ليره ؟ فليدفعها الجاني ..

ـ انت في محكمه وليس في قاعة تهريج ، اما ان تدفع او تسجن حالا .

كان الحاكم جادا فعلا ، غلى الدم في عروقي وتدفق غزيرا حارا في كل اعضاء جسمي .. لو كنت اعلم أن المسألة جدية لهذا الحد لوكلت محاميا ..ولكن فات الوقت .. والاستسلام للغضب في هذه الحالة مضر .. ورحت أعد العشرة على مهل .. وفجأة خطر لي خاطر جميل .. ارتاحت له نفسي .. عجبا كيف لم أفطن به من قبل .. وبصوت واثق جريء قلت للحاكم :

ـ لا يا جناب الحاكم ، بل سأدفع الف ليره ..

ـ ماذا ألف ليره .. لقد حكمنا عليك بخمسمئة ليره يعني خمسمئة ليره فقط ألا تفهم ؟ انت في محكمه!

ـ معذره يا جناب الحاكم ، بل سأدفع ألف ليره! خمسمئة ليره عن الحمار ومثلها افرضها انا على نفسي ، طبعا تريد تفسيرا ؟ أليس كذلك ؟

انني الان اتساءل كيف فاتني أن لا آخذ عزة النفس والكرامة عن حماري ؟ يا له من حمار أصيل..

لم يستنكف أن يتحمل رجلا غريبا بركبه ولو للحظة واحدة!! وواحدا وقد من لم فوق ظهره حتى أنه لم يعد يحس بهم .. لكأنه قانع بما هو فيه لا يتذمر ولا يشكو ولا يقول أف لشيء ..

شكرا للمحكمة الموقرة التي فتحت عيني على اشياء كثيرة .

وشكرا جزيلا لحماري العزيز الجانب .. ألم أقل لكم انه اجدع حمار في البلد ؟؟

* ☆ *

ـ مع أنك ماهر في الرسم وتحصل على عـلامـة (جيد جدا) الا أن السجين أبي ومن حقي انا أن اقوم بالعملية لا انت !

ولكن الاكثرية صوتت الى جانب علي ، فـلاذ حسن بالصمت مرغما .. ثم لم يلبث ان عـاد يقـــول محاولا افساد الخطة :

ـ أنا أقول اذا نفسّنا عجلات السيارة او كسرنا زجاجها يكون افضل بكثير من أى شيء آخر .. وعندها فقط اعتبر نفسي بأنني انتقمت لابي ..

وعندما لم يجد اقبالا على فكرته او حتى تشجيعا

لها ، قال بصوت يفضح خيبته وحزنه :

ـ طيب .. اعملوا ما تريدون .

عندها صفق له الجميع وهبوا دفعة واحـــدة ليباشروا العمل .

قـــال علي :

ـ سأقترب من السيارة ، وانت يا حسن ستكون معي .. لتساعدني .. موافق ؟!

ويصيح حسن :

ـ طبعا موافق !!

ويلتفت علي نحو باقي الشلة ويقول :

ـ أما أنتم فكل واحد منكم يقف في زاوية ، واذا ما احس أحدكم باقترابهم فما عليه الا ان يصفر صفرة السر التي اتفقنا عليها .. والان فليجرب كل منكـم صفرة السر ..

وراحوا يصفرون صفيرا حادا متقطعا حينـا ، متواصلا حينا آخر .. مما جعل احدى النســـوة في الحارة تطل برأسها من النافذة وتنهرهم شاتمة لاعنة :

ـ كفى صفيرا يا أبالسة ! اذهبوا وصفروا فـي أقفية امهاتكم !

ولكنهم لم يابهوا بها واستمروا في تمريناتهـــم

حتى صاح علي : والان تفرقوا ..

ثم سار هو نحو السيارة الواقفة في الـدوار ، وحسن يتبعه ..

لم تكن السيارة هذه سوى سيارة الشرطة .. تلك السيارة التي نقلت ابا حسن (الكومونيست) الى المركز ومن ثم الى السجن .. وما دامت هذه السيارة قد نقلت أبا حسن الى السجن ، فهي السبب اذن فـي هذه المصيبة ـ هذا ما فكر به هؤلاء الصبية اصدقـاء حسن ـ وما عليهم الان الا ان ينتقموا .. ولكن كيف وفكروا كثيرا في طريقة وقوع الانتقام الى أن تـوصلوا أخيرا الى ما هم مقدمون عليه .. وعاد علي يلقي بأوامره وقد وصلا السيارة ..

ـ أنت يا حسن ما عليك الا أن تحرسني من العيون وتناولني ما أطلب .. هات قطعة الفحم ..

أخرج حسن قطع فحم صغيرة من جيبه ، ثـم رماها نحو علي الذى التقطها بسرعة وراح يرسم عـلى القسم الابيض من جانب السيارة .. كان يرسم بسرعة واتقان ، وحسن يتلفت يمنة ويسرة ..

ومن بعيد سمع صفير حاد .. صفرة السر .. وعلي ما زال منهمكا في الرسم .. وحسـن المضطرب

قليلا يصرخ ..

ـ اللعنة ! لقد جاؤوا .. اترك الرسم .. اتـرك الرسم .. هيـا .. هيا ..

وارتفع الصفير ثانية وثالثة ، وعلي مازال منغمسا في عمله لا يعي شيئا مما يدور حوله ..

ـ هل تحسب نفسك في مسابقة الرسم النهائية! هيا .. هيا .. لقد وصلوا ..

قال حسن ذلك وفر هاربا في كرم الزيتون القريب منهم وعلي يتبعه لاهثا ..

ورجل البوليس الذى رآهما يهربان ، هـرع الى السيارة ، ولم ينتبه للرسم ، اذ كان في اعتقـاده شيء آخر .. وعندما تفحص العجلات والابواب ووجدها سليمة ركب مع من معه وقفلوا عائدين الى المركز .

●

يحكون أن عبد الغفار البستاني الذى يعمـل في المركز روى لزوجته ما حدث بعد أن اخذ عليها عهدا بكتمان السر .. ولكن الخبر انتشر في القرية كلها قبـل غروب شمس ذلك النهار .. فما من احد الا سمع وروى القصة .. ويا لها من قصة :

قيل عندما وصلت السيارة ووقفت امام المكتب

خرج الضابط صدفة ووقعت عينه على الرسم .. اصفر وجهه ، ورقص شارباه وصار يتلمس كمن رئبه عفريت .. ثم صرخ على رجل البوليس الذى كان في السيارة .. وبصق في وجهه أى والله .. بصق في وجهه .. وبهت كل من كان هناك .. واعتقد البعض ان الضابط قد جن فجأة .. ولكن عندما قال لرجل البوليس الواقف أمامه :

- انظر !!

نظر الجميع الى حيث أشار .. ويا للدهشة ، شيء لم يكن بالحسبان ..

وهمس شخص ما ..

- يرسمون منجلا ومطرقة على سيارة البوليس يا لهم من عفاريت !!

وتنتهي حكاية عبد الغفار البستاني ..

وتنتهي التحقيقات في الامر .. تحقيقات البوليس التي أقلقت القرية اسبوعا كاملا .. ولكن اثر هذه الحادثة لم ينته ، فقد دخلت البيوت ودارت على الالسنة في الشوارع .. ثم تسربت الى القرى المجاورة والاهم من كل هذا انها دخلت النفوس التعبة الخائفة فأزاحت عنها بعض حملها ..

وراح علي وحسن وباقي الشلة الذين انـكروا
كل شيء يدبرون حكاية جديدة .. !

●

المنديل الاسود

* * *

وقف منصور امام المرآة بعد ان ارتدى بزته العسكرية .. لم يبق عليه الا أن يلقي نظرة اخيرة على حذائه طويل الساق الممسوح ، والقبعةبنجمتهاالصفراء اللامعة ..

كانت أخته تقف بجانبه لتقدم له ما يطلبه منها .. وأمه جالسة في الزاوية ترقبه بعينين دامعتين .. وأخته الصغيرة منشغلة بالتهام ما تبقى في الطبق من طعام كان قد تركه منصور وراءه بعد أن أكل بدون شهية ارضاء لامه .. أما اخوه الصغير فقد كان يعاكس قطة سوداء تجثم فوق الوسادة .. وعندما ضربها ،

ماءت وعضته بيده ، فعلا صراخه وابتعد عنها لائذا بأمه تلت ذلك فترة صمت عميق .. ذلك الصمت المقدس الذى يسبق كل وداع .. سيذهب منصور بعيداً ببزته العسكرية الخضراء ، وسيترك وراءه فراغا ووحشة وقلقا مستمرا ..

كانت المرآة تعكس ما يقابلها في الجهة الاخرى ، واستطاع منصور ان يرى ساعة الحائط القديمة باطارها الشاحب ، وبجانبها طبق مصنوع من القش الملون وضع للزينة .. ثم صورة مكبرة لرجل بدت على وجهه المتجعد مسحة وقار واحترام .. جده الذى مات بعيدا عن بلده في حرب السفر برلك .. ضحية من ملايين الضحايا البريئة التي سحقتها مظالم الاتراك وشعر بموج عاطفي جارف تجاه الصورة وصاحبها وأحس برابط قوى يربطه بجده لم يشعر به من قبل..

وبجانب الصورة تدلت ملابس سوداء علقت على مسمار ، ذلك المنظر المألوف الذى أعاده لايام الطفولة ((قنباز وسلطه)) وعمامه بيضاء ملابس والده الذى يقضي جل وقته في الحقل والبستان .

اجل الحقل القريب من القرية والبستان المشهور برمانه المسمى (بوز البغل) لضخامة اكوازه ..قطعتان

عزيزتان على قلبه .. يفرط بحياته ولا يفرط بهمـــا وخاصة بعد أن صادرت له دائرة الاحراش ارض الجبل هكذا عينك عينك ..

وهل ينسى ذلك اليوم عندما صرخ في المحكمة :

- والله عال .. حاميها حراميها .. ولا السلطان عبد الحميد بزمانه .. الولد للحكومـــة .. والارض للحكومة .. عيشه مثل الخلق ما في .. اى منكم للـه يـا ظلمـه ..

ويأتي صوت امه المخنوق ليقطع عليه تأملاته :

- راجع امتى يا حبيبى ؟

- والله ما انا عارف .. مش اقل من شهر ..

- شهر ! كثير يا ابني الله يجازى اللي كان السبب وينوقه المصايب ..

وشمل البيت سكون عميق .. ترى بماذا تفكر أمه !! مسكينة هي ومثيلاتها .. تقضي اوقاتها بالنواح والبكاء .. منصور غايب من غير شر .. اللحمه ممنوعه في البيت ... وبلاطة الكبه مقلوبه على وجهها .. الامر الذى يؤدى الى شجار بينها وبين والده ..

- صحيح الرجال ما بتشعر .. قلوبها صوان .. كيف عندك قلب تبلع اللقمه والصبي غايب ؟؟

ويُغلب الاب على امره وينتهي الشجار بانتصار الام وببكاء الاخوة الصغار الذين خابت آمالهم بأكلة دسمة ..

نظرمنصور الى الساعة نظرة حزن ويأس ،موعد السفر يقترب .. دقائق معدودة ويأتي الباص الذى سيقله الى المدينة .. علق حقيبته العسكرية على كتفه ثم اقترب من امه التي سبقتها عبراتها ، ووقف جامدا يريد أن يتكلم ولكن شيئا ما يمنعه .. انه يريد .. يريد نقودا .. فما أصعب هذا الطلب وما أقساه على نفسه ، فهو يعرف تماما حالة البيت المالية .. ولكنه محتاج ، انه مسافر وللسفر تكاليف .. واستطاع اخيرا ان يفصح عن رغبته ...

ـ يمه .. بدى .. بدى مصروف !

قامت الام الى الخزانة وفتحت صرة صغيرة ثم أخرجت منها ورقة مالية :

ـ خذ يا ابني آخر ورقة .. من حق العدسات .

تناول منصور الورقة المالية وانحنى ليقبل يد أمه قبلة الشكر والامتنان .

ـ ادعي لي يمه .. ادعي لي بالتسهيل ، سلمي لي على والدى ..

وبكت أخته لسماع كلمات الوداع واقتربت منه وقبلته .. ثم اقترب هو من أخيه الصغير الذى تراجع الى الوراء خوفا من ملابسه العسكرية غير المألوفة له :

ـ ما تخاف خيّوه .. أنا احبت كسيل .. انـا منسول مش عالفني ! هات ابوس النيع ..

وقبله من كل قلبه ..

وخرج مسرعا بعد أن ترك في البيت مناحـــة صغيرة .. وعندما ابتعد قليلا لم يستطع كبح جمـاح نفسه التي انهارت ازاء الموقف فترك دمعة ساخنةتسح على خده .. ثم تسقط على الارض فتمتزج بترابقريته الغالية على قلبه ..

وصعد الباص حزينا مهمومًا .. واتخذ له مكانا منفردا حيث ترك لنفسه العنان .. كيف يغادر القرية دون أن يرى (سهام) محبوبته ، ولم يكلمها ولو بكلمة واحدة تكون زاده في سفرته الطويلة ؟ ترى هل حدث ما يعكر المزاج ؟ هل سمعت كلاما اغضبها ام ترى علم والدها بالامر فمنعها من الخروج ؟ ولكن لا .. لا والدها عاقل ولا شك بأنه يعرف اني سأخطبها ..اجلسأخطبها سأتشجع وافاتح والدى بالامر في المرة القادمة .. ومن ناحية النقود .. ربك كريم وكل عقده ولها حلّال ..

وانفتحت الافاق امامه بعد ان كانت مغلقة تماما وشعر بشيء من الاطمئنان ، فسرت رعشة سحرية بجسده كله ، وانفرجت اساريره وعادت له بسمته العذبة وعلت وجهه الاسمر المليح ..

●

بدأت جماعات الجنود تتوارد وتتجمع في المكان المتفق عليه في المدينة .. وكان الضابط يسجل اسماء الوافدين باللغة العبرية واحدا تلو الاخر ، وبين الحين والحين كان ينظر الى ساعته السايكو اللامعة ـ وكمن يفقد الامل من شيء. هب واقفا .. مصمص شفتيه الجافتين وقال باللغة العبرية :

ـ لقد تخلف البعض خلافا للاوامر .. لا يهم .. سينامون الليله في السجن ..

وعاد ليلقي اوامره بغلظة واضحة ومقصودة .. وقفز الجنود الى السيارة العسكرية التي ستنقلهم الى معسكراتهم المتعددة .. وبعد سفر شاق وصلوا المعسكر فاستقبلهم بخيامه الرمادية الموحشة .. نسوا ازاءها كل ما انطبع في نفوسهم من احاسيس جميلة خلال وجودهم في قراهم ..

اللعنة على هذا المكان الموحش الممل ، كل شيء

هنا مر .. حتى أيامه المتشابهة اصبحت وكأنها يوم واحد طويل كئيب .. طوابير في النهار وحراسة في الليل دولاب من المرارة والشقاء والذل وتأنيب الضمير .. يدور ويدور ولا يتوقف ـ ولا أحد يوقفه ! بل الويل .. الويل لمن يحاول ايقافه !!

●

عندما قرأ منصور اسمه في قائمة الذين سيخرجون في مهمة خاصة لم يعترض كعادته .. ولم يحتج بل تقبل الامر بهدوء مع شيء من الرضى لما فيه من تغيير الجو .. كان هم منصور آنذاك ان يخرج من المعسكر الى أين .. لا يهم .. المهم ان يخرج ..

وبأمر من أحد الضباط انقسم منصور وزملاؤه الى فرق صغيره ثم ركبوا سيارات (الكومندو) متجهين في بهمة الليل الى .. الى الحدود ، وهناك كمنوا حسب التعليمات العسكرية ، ومضى الوقت بطيئا ينهش الاعصاب المتوترة ، والظلام الحالك يخيم فوقهم كخيمة سوداء تفصلهم عن عالم الاحياء ! ونسيم الليل يهب ثقيلا باردا فيلفح الوجوه ويخز الاطراف وخزا لذيذا .. من حين لاخر كان يشق السكون صوت صرار او طائر ليل خرج من وكره ليبحث عن طعام يطرد به الموت عن نفسه

وصفاره ..

كل ذلك تراءى لمنصور كحلم مزعج مذهل تقطع ذكرى عزيزة يتحلبها الخيال المتعب من القرية .. البيت .. الاحباب .. واستيقظ من حلمه فجأة .. همس المسؤول :

- سامع ؟؟
- ماذا ؟ لا اسمع شيئا ..
- أنصت جيدا ، انه وقع اقدام مقبله .. وهمس خافت ..

وقبل أن يتحقق منصور من ذلك انتفض بشدة لسماعه طلقات نارية لا يدرى من أين مصدرها.. امامه خلفه ، عن جانبيه .. لا ! لا شك انه ما زال يحلم .. واستحال السكون الثقيل الى ضجيج ثقيل .. الى أزيز مزعج ..

وتخرقت تلك الخيمة السوداء ، خرقتها اشعاعات نارية حمراء وصفراء .. لقد استحال السكون جحيما مستعرا .. مناظر مثيرة ، اجل مناظر شاهدها أكثر من مرة على الشاشة .. ما هذا ؟! لعله كابوس ؟؟ لا .. لا ان ما يدور حوله حقيقة .. وفجأة انفتحت أمامه كوة بيضاء أطل منها وجه كثير الشبه بوجه امه

.. بل هو .. انه وجه أمه .. ووجه آخر ، انه وجه أبيه .. وجوه كثيرة يعرفها تمر مسرعة متلاحقة .. وطفل صغير يشير باصبعه نحو صورة مكبرة ومعلقة على الحائط لرجل جليل .. وجه فتاة عرفه لاول نظرة .. سهام الحبيبة الغالية تنظر اليه مبتسمة ! نعم انها تبتسم بحياء .. تذكره بالموعد ! أف ما هذا الكابوس ! وتعود الكوة لتتسع أكثر فأكثر ولتصبح سماء بيضاء واسعة ثم لا تلبث أن تضيق قليلا قليلا وتتلاشى ..

●

وعلى أول خيوط الفجر تفقد الجنود بعضهم وذهلوا لمنظر جثة راقدة تلطخت بدماء حمراء خاثرة .. انها جثة منصور .. وبموكب حزين نقلت الجثة الى المعسكر ثم الى القرية حيث استقبلت بالصراخ والبكاء والعيون الحمراء الحزينة الغاضبة .

ـ منصور !! حبيبي .. سلم على امك ! سلم على أبوك .. رد علي يا سندى ! رد علي يا عيني .. انت في بيتك بين أهلك .. قوم استقبل ضيوفك .. ارقصوا يا ناس !! أرقصوا للعريس وغنوا له !

ونقل الجثمان الى المقبرة .. الى المقر الاخير ، ووقف المشيعون خاشعين امام ملائكة الموت المرعبة ..

واطلق رفاقه الجنود طلقات التأبين فـوق النعش .. ودوت الطلقات في الاودية وتكسرت على سفوح الجبال مسجلة اسما جديدا لضحية جديدة في قائمة الضحايا الطويلة ..

●

وقبل أن ينتهي الاسبوع الاول على وفاة منصور علقت صورته المكبرة بجانب صورة جده الوقور ووضع على الاثنتين منديل أسود ..

●

النبـــوءة

* * *

يوم ولدنا ـ هكذا قيل لنا ـ كانت الشمـــس تغمر بلدنا بنورها ودفئها .. ويوم ولدنا ، قيل لنـــا أيضا بأن امهاتنا ولدتنا بقامات منتصبة .. منتصبـة تماما كجذوع السنديان الذى يغطي سفوح الجبال في بلدنـا .

انظر الى السماء فوقي فلا أرى غير سحابـــة سوداء .. وانظر الى من حولي فلا أرى غير ظهـــور محدودبة ووجوه صفراء ارهقها الذل .. وعندما نظرت الى المرآة راعني اصفرار وجهي وأحديداب ظهرى

سالت السنديانة التي استظل بظلهادائما فقالت:

ـ اذا دهمتني العواصف اظل واقفـــة .. وان صرعتني أموت واقفة ..

خجلت .. خجلت كثيرا .. احسست بـأنـي أنكمش وانكمش أكاد اتلاشي .

يحكون انه عندما ظهرت هذه الغيمة التي تظـل بلدنا ، خرج الناس من البيوت والمقاهي وملأواالطرقات قال البعض :

ـ انها سحابة عـابرة !!

وعادوا الى نارجيلاتهم يحششّون ..

وكبرت الغيمة .. واتسعت حتى غطت سماء بلدنا .. غضبنا .. متنا غضبا .. وعندما نظرنا الى أعلى أرسلت الغيمة نحونا شررا كاد يخطف أبصارنـا .. وعندما قذفناها بالحجارة ، عادت الحجارة الـــى رؤوسنا فقتل من قتل وجرح من جرح وهرب مـــن هرب .. واستسلم الباقون بعد أن انحنت ظهورهـم واصفرت وجوههم ..

ثلاث مرات حاولنا الانتصاب وثـلاث مـرات لامست جباهنا الارض ، لم نيأس .

قال الشيخ مصطفى : لقد كفرنا بالله .. تبعنا أهواءنا ونسينا ما قاله انبياؤنا .. يا أبنائي .. طهروا

نفوسكم وعودوا الى معابدكم وصلوا !! صلوا من قلوبكم ولسوف تعود لكم الشمس الدافئة التي حرمتم منها.

ذهبنا الى المعابد .. وصلينا باخلاص ، ركعنا وابتهلنا ورفعنا ايدينا داعين متوسلين .. ولكن دعواتنا الحارة ضاعت في حلكة الغيمة الرهيبة ..

وجلسنا ننتظر .. ننتظر المعجزة التي لا بد ان تأتي وتنقذنا من هذه الغيمة المخيفة وتعيد لنا الشمس المشرقة .. لم نسمع بفلكي او مشعوذ الا وسألناه .. لم نترك بابا الا وطرقناه ..

وكثر المتزعمون !! فما من عراب او سمسار او رجل داهية او قواد او بطجي الا وحاول ان يتزعمنا معتقدا ان الفرصة فرصته ..

كل هذا حدث ولم تحدث المعجزة المنتظرة ..

●

الحقول التي طالما اغتذت من الشمس ، امحلت وجفت زروعها وأزهارها .. والطيور التي طالما غردت للشمس سكتت وفرت هاربة .. وعشش البوم على الاسطح وفي البيوت وظهرت الصراصير والفئران اسرابا اسرابا تتجول في الشوارع وعلى مصاطب البيوت ..

سعال النسوة والاطفال والكهول يملأ الفضاء ..

السل ! نحن والسل والفئران والصراصير نعيش تحت الخيمة السوداء .. الشمس التي حدثونا عنها كثيرا ، أصبحت بالنسبة لنا شيئا في عالم الغيب .. حلمـــا جميلا .. أمنية بعيدة المنال .. حاولنا مرارا كدنـــا نيأس .. بكينا حتى جفت الدموع وصرخنا حتى تقطعت أوتار حناجرنا .. خرسنا !!

والاخرس الذى جاء الى بلدنا وسكن معنا منذ الازل بدأ يتكلم .. في اللحظة التي خرسنا بها انطلق لسانه .. انه يتكلم بفصاحة مدهشة .. ولكنا لـــم ندهش !!

الاخرس الذى بدأ يتكلم جمعنـــا في الشارع وصاح بنا .. ايها القوم ، يا أحبائي انا لست اخرس كما كنتم تعتقدون ولكني اعرف متى اتكلم اقصد متى ينفع الكلام .. تماما كالفلاح الذى يبذر الحب عالما بأن الارض مهيأة ، لقد حاولتم الخلاص من محنتكم فازداد عذابكم وتكاثف اليأس في قلوبكم واوشكتم على الاستسلام .. فشلتم .. لم تسألوا لماذا .. انتهى دوركم ولذا جـاء دورى انا ..

ايها الاحباء اذا اردتم الخلاص فعودوا الان الى

بيوتكم واعتمروا قبعاتكم الحمراء ثم ضاجعوا نساءكم ، لا تنسوا ان تعتمروا قبعاتكم الحمراء قبل ان تضاجعوهن ..

قال هذا ثم اختفى فجأة ..

وفي اليوم التالي كان لبلدنا شان آخر ، الاطفال الذين ولدوا في ذلك اليوم ، ولدوا بقامات منتصبة ورؤوس حمراء ، الرؤوس الحمراء مزقت القمط وخرجت لتملأ الساحات والشوارع .. انقطع السعال واختفت اسراب الصراصير والفئران .. نظرنا الى اعلى .. يا للدهشة !! الغيمة السوداء تذوب رويدا رويدا .. خيوط الشمس الذهبية تطل من وراء الجبال وقاماتنا التي انحنت ، انتصبت ثانية .

الفهـرس

وطني ردني الى رباك شهيدا	٥
أبو محمـود	١٢
أسئلـة الاطفـال	١٨
الطائر واحـلام العودة	٢٧
السنديـانـة	٣٠
محروسـة	٣٥
ثور تلقيـح	٤٣
أمسيـة	٥٢
ورقـة يـانصيب	٦٠
استاذى الحمـار	٦٧
شـقاوة عيـال	٧٣
المنـديل الاسـود	٧٩
النبـوءة	٨٩

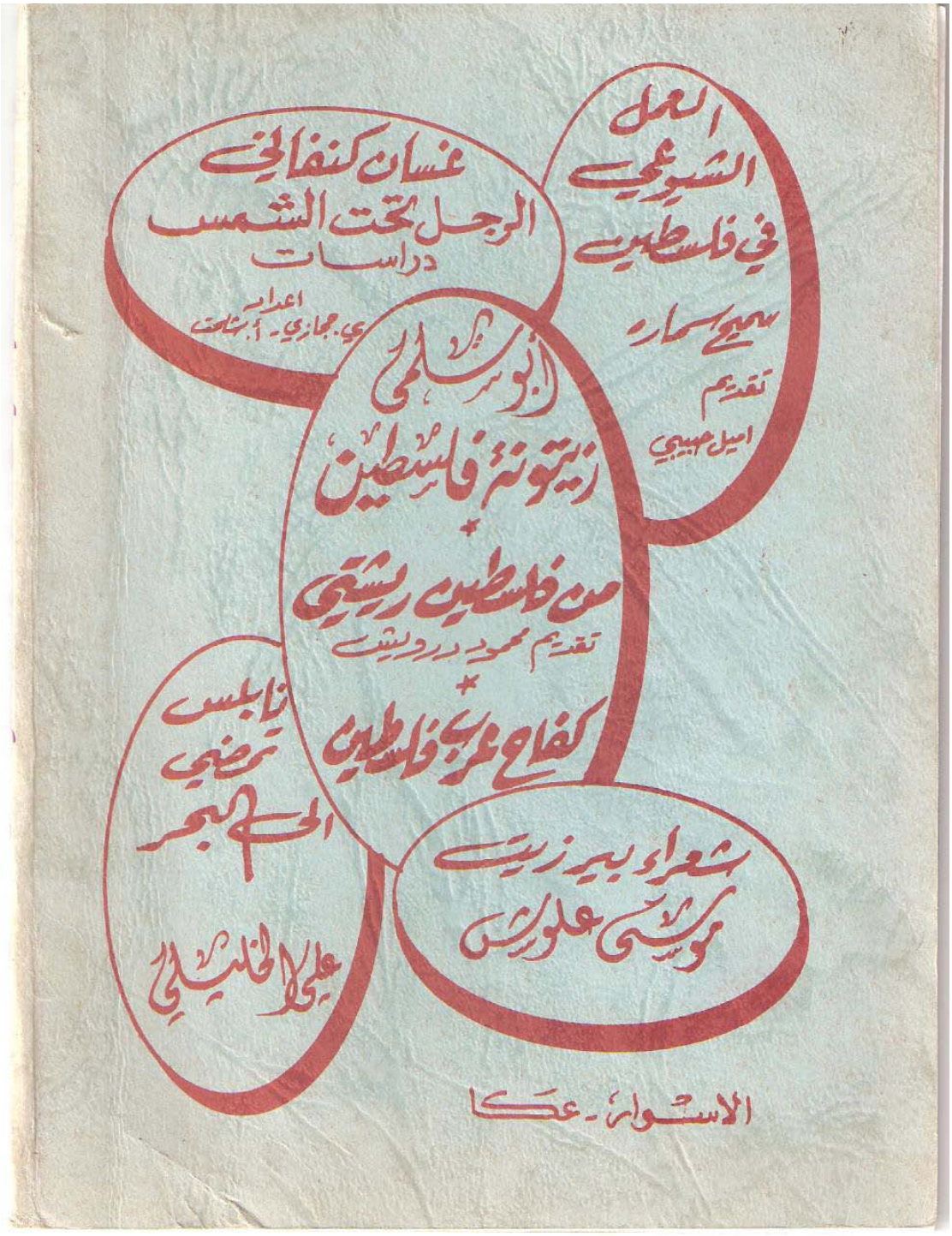
العمل الشيوعي في فلسطين
سهيل اسمار
تقديم
اميل حبيبي
غسان كنفاني
الرجل تحت الشمس
دراسات
اعداد
ي. مجازي - أ. شماعنة
أبو سلمى
زيتونة فلسطين
+
من فلسطين ريشتي
تقديم محمود درويش
+
كفاح عربي فلسطيني
نابلس
ترضى
الى البحر
علي الخليلي
شعراء بير زيت
موسى علوش
الاسوار - عكا